17 em Année No. 809

Lundi — 3 — 1 — 1949

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٣٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٨٠٩ « القاهرة في يوم الاثنين ٣ ربيع الأول سنة ١٣٦٨ — ٣ يناير سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

الإسلام دين القوة



الإسلام دين القوة ؛ وهل في ذلك شك ؟

شارعه هو الجبّار ذو القوة المتين ؛ ومبلغه هو محمدٌ الصبّار ذو العزيمة الأمين؛ وكتابه هو القرآن الذي تحدى كل إنسان وأعجز ؛ ولسانه هو العربي الذي أخرس كل لسان وأبان ؛ وقواده الخالدون هم الذين أخضعوا لسيوفهم رقاب كسرى وقيصر ؛ وخلفاؤه المعمرون هم الذي رفعوا عروشهم على نواصي الشرق والغرب .

فمن لم يكن قوى البأس ، قوى النفس ، قوى الإرادة ، قوى العزيمة ، قوى العقيدة ، قوى الإنسانية ، قوى الأمل ، قوى العدة ، كان مسلماً من غير إسلام ، وعربياً من غير عروبة !

الإسلام قوة في الرأس ، وقوة في اللسان ، وقوة في اليد ، وقوة في الروح .

هو قوة في الرأس لأنه يفرض على العقل توحيد الله بالحجة ، وتصحيح الشرع بالدليل ، وتوسيع النص بالرأي ، وتعميق الإيمان بالتفكر .

وهو قوة في اللسان لأن البلاغة هي معجزته وأداته ؛ والبلاغة قوة في الفكرة ، وقوة في العاطفة ، وقوة في العبارة .

وهو قوة في اليد لأن موحيه — وهو الحكيم الخبير — قد علم أن العقل بسلطانه واللسان ببيانه لا يغنيان عن الحق شيئاً إذا ما أظلم الحس وتحكمت النفس وعميت البصيرة ؛ فجعل من قوة العضل ذائداً عن كلمته وداعياً إلى حقه ومنفذاً لحكمه ومؤيداً لشرعه . كتب على المسلمين القتال في سبيل دينهم ودنياهم ؛ وفرض عليهم إعدادَ القوة والخيل إرهاباً لعدوهم وعدوه ؛ وأمرهم أن يقابلوا اعتداء المعتدين بمثله . ولكن القوة التي يأمر بها الإسلام هي قوة الحكمة والرحمة والعدل ، لا قوة السفه والقسوة والجور؛ فهي قوة مزدوجة ، أو قوة فيها قوتان : قوة تهاجم البغي والعدوان في الناس ، وقوة تدافع الأثرة والطغيان في النفس .

والإسلام بعد ذلك قوة في الروح لأنه يمحص جوهرها بالصيام والقيام والاعتكاف والارتياض والتأمل .

وأنت إذا عرضت على الفكر السليم الحكيم مبادئ العقيدة الإسلامية ، وجدتها كلها تتجه إلى القوة ، أو إلى ما تحصل به القوة ؛ فالصلاة نظافة جسدية بالوضوء ، وطهارة روحية بالذكر ، ورياضة بدنية بالحركة . والزكاة تقوية للضعيف بالتصدق ، وتنمية المال بالتطهير ، وتمكين للمجتمع بالتعاون . والحج قوة اجتماعية بالتعارف والتآلف ، وقوة سياسية بالتشاور والتحالف ، وقوة

اقتصادية بالبياعات والتسوّق . وإن أشد ما تجتمع به القوة وتتسق عليه الحال هو الوحدة والجماعة ، وهما لباب الدعوة الإسلامية . فالوحدة هي الأساس الذي حمل ، والجماعة هي الصرح الذي قام . كانت الوحدة هي الأساس لأنها توحيدٌ لله بعد إشراك ، وتوحيدٌ للعرب بعد شتات ، وتوحيدٌ للرأي بعد تفرق ، وتوحيدٌ للغة بعد تبلبل ، وتوحيدٌ للقِبلة بعد تدابر . وكانت الجماعة هي الصرح لأنها جُمعة القلوب التي ألف بينها الله ، وجملة الشعوب التي رفع شأنها محمد . ثم قامت سياسة الإسلام على استدامة القوة بالمحافظة على الوحدة والحرص على الجماعة . فالفرد الذي يكفر بوحدة العقيدة والأمة يُقتل ، والطائفة التي تبغي على جماعة المسلمين تقاتَل . والصلاة إنما يعظم أمرها ويضاعف أجرها إذا أُديت في جماعة . وهذه الجماعة تتكرر خمس مرات كل يوم ، ثم تكبر في صلاة الجمعة كل أسبوع ، ثم تعظم في صلاة العيدين كل عام ، ثم تضخم في أداء الحج مرة — على الأقل — في كل عمر .

على ذلك كان إسلام محمد وأبي بكر وعمر ؛ وعلى ذلك كانت عروبة خالد وسعد وعمرو . كان العرب والمسلمون حينئذ يحملون المصحف للحق والسيف للباطل ؛ وكان خلفاؤهم يجمعون بين إمامة الصلاة وقيادة المعركة ، حتى بلغوا من القوة أن فعل كتاب الرشيد ما يفعل الجيش ؛ وبلغوا من المروءة أن سيّر المعتصم جيشاً لإنقاذ امرأة . فلما شتت الوحدة ، وتفرقت الجماعة ، وصارت سيوف المسلمين خُشُباً يحملها خطباؤهم على المنابر ، ومصاحفهم تمائم يعلقها مرضاهم على الصدور ، أصبحت دولهم نهباً لكل غالب ، وتراثهم نهباً لكل غاصب ؛ وبلغوا من التخاذل والفشل أن الأندلسيين يُجليهم النصارى عن أقطارهم بالأمس فلم يجدوا الرشيد ؛ وأن الفلسطينيين يشردهم اليهود عن ديارهم اليوم فلا يجدون المعتصم !

إن مسلمي هذا الزمن الأخير صاروا من جهلهم بالدين وعجزهم في الدنيا على أخلاق العبيد ؛ يُطأطأ إشرافُهم فلا يندى لهم جبين ، وتُنتقص أطرافهم فلا يَحمى لهم أنف ، وتنزل بهم الشدة فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب ، ويغير عليهم العدو فيتواكلون تواكل الأخوة دبّ فيهم الحسد ، وتُجمعهم الخطوب فيُفرقهم الطمع والهوى ، ويلجأون إلى جامعة الدول المتحدة فيخذلهم العدو والصديق ؛ كأن الإسلام الذي كان عامل قوة وائتلاف ، قد انقلب اليوم علة ضعف واختلاف ! وكأن الدين كنا نقول لهم بلسان الجهاد : أسلِموا تسلَموا ، يقولون لنا بلسان الاضطهاد : تنصّروا تُنصَروا ! ! ولكن الإسلام دين الله لا يغيره الزمن ، ولا تجافيه الطبيعة ، ولا يعاديه العلم ، ولا تنسخه المذاهب ؛ وإنما المسلمون اليوم هم أعقاب أمم وعكارة أجناس وبقايا نظم ورواسب حضارات وربائب جهالات وطرائد ذل ، ففسدت مبادئ الإسلام في نفوسهم المشوبة كما يفسد الشراب الخالص في الإناء القذِر .

إن جامعة الدول العربية كانت تعبيراً جميلاً لحلم ساور النفوس الطيبة حقبة من الزمن . ولكن الحلم قد يقع وقد لا يقع ، والتعبير قد يصدُق وقد لا يصدُق . ولو كان ميثاق هذه الجامعة قبساً من نور الله وهدياً من سنة الرسول ، لما رأيناها في نكبة فلسطين تعد ولا تنجز ، وتقول ولا تفعل . ولو ظل أمرها قائماً على الخطب الحماسية والوعود المغرية والتصريحات البليغة والاجتماعات المتعاقبة ، لظلت في نفوس العرب والمسلمين مناط الثقة ومعقد الرجاء ومثابة الأمن ؛ ولكن طالعها السيئ ابتلاها وهي لا تزال في زهو النشأة وصفو المآدب بحرب الصهيونية المهينة ، فتحمست الدول السبع ، وسيّرت كتائبها الظافرة إلى عصابات اليهود في فورة من الأناشيد والخطب ؛ فلما صار الأمر جداً والكلام فعلاً وقفوا على أطراف الميادين وقفة الحائر القلق : هذا يتجه إلى بريطانيا وفي يده التاج الناقص ؛ وذاك يلتفت إلى أمريكا وفي كفه العقد المبرم ؛ والآخرون يتهيبون الأمر وينتظرون في ظلال الهدنة المفروضة ما تلده الأحداث ويقرره مجلس الأمن !

وليس من هؤلاء الآخرين المنتظرين والحمد لله مصر ؛ فقد قضت عليها حمايتها للاسلام ورعايتها للعروبة وأمانتها للجامعة أن تقف وحدها في الميدان الغادر تكافح في صدق وصبر جيوش اليهود وقواد الروس وأسلحة الأمريكان ومكر الإنجليز ؛ ثم لا تلقى من أخواتها الشقيقات إلا هتافاً كهتاف الحمام وحناناً كحنان الأوز : بروق باسمة من غير غيث ، وصكوك ضخمة من غير رصيد ! !

لقد تكشفت مأساة فلسطين — وا سوأتاه — عن قلوب شتى ووجوه متعارضة . والإسلام — كما رأيت — وحدة وجماعة . فن فصم العروة بعد توثيقها ، ونقض اليمين بعد توكيدها ، وفرق الكلمة بعد توحيدها ، فهو مسلم من غير إيمان ، وعربي من غير شرف ، وإنسان من غير ضمير !

أحمد حسن الزيات

شفاء الروح

لصاحب العزة محمود بك تيمور



أخى المؤمن: قصارى ما يطمح إليه فؤادك أن تكون سعيداً، وإنك لتسعى جاهداً غير وان ، باذلا كل مرتخص وغال ، لا قبلة لك إلا أن تحظى بتلك السعادة المنشودة.

ولكنك تظلم نفسك إن عددت السعادة فيما يتراءى لك من عروض الحياة ، كالغنى والجاه . فهذه العروض التى يستعصى عليك منالها ، والتى تحسب الخير أجمع فيها ، ربما كانت هى باعثة الشقاء ، ومدعاة العذاب .

وأنت فقد تجاهد وتجالد ، حتى تبلغ مأربك من هذه العروض ، وما هى إلا أن يتجلى لك ما خفى عنك ، فتعرف بعد لأى أنك كنت مخدوعاً تظن السراب ماء ، وأن الغنى والجاه وما إليهما من مظاهر الحياة إنما هو زيف زائل وزخرف باطل .

ويوم تقف على القمة بعد أن صعدت فى السلم الذى استهواك ، ترى أنك لم تظفر من جوهر السعادة بطائل ، وأن من حولك غيوم الحياة وظلماتها مطبقة عليك ، وأنك لم تنكشف عنك البأساء والضر ...

ولو سمت نفسك إلى أن تستكنه سر ذلك ، لعلمت على يقين أن الظاهر قد غرك ، ففقوت أثره ، واسترسلت فى طلبه ، فلم تمن بالمخبر واللباب !

أخى المؤمن :

إن للسعادة لنبعاً فياضاً هو « الروح » ...

فمن تنكب عنه ، لم يظفر برشفة منه ، ولو أدلت إليه السماء بأسباب ، ومن فطن له بلغ السعادة من أقرب باب !

ولا تبلغ الروح هذا المبلغ من إسعاد الإنسان إلا إذا توافر لها الصفاء والنقاء ، فإذا هى تشف وتخف ، وإذا هى تسمو إلى آفاق علوية ترفعت عن الشوائب والأدران .

فهل لى أن أكاشفك بما أسميه « تجربة » أو « وصفة » تنيلك ما تريده لروحك من صفاء وتطهر ، حتى تصل إلى شفاء النفس وتتوافر لك السعادة الحقة ؟

لست أفجؤك بما يروعك سماعه ، أو يعييك فهمه ، أو يتعاصى عليك إنفاذه ...

إنها وسيلة بالغة الشيوع ، قريبة التناول ، بيد أن الناس قلما يلتفتون إلى سرها العظيم ، وأثرها الناجع ، فهم لا يتخذونها على النحو الذى يحقق تلك الغاية الغالية ...

أخى المؤمن :

نُصحى إليك أن تضع مصحفاً فوق وسادك ، لا تتخذه تميمة من التمائم ، ولا تعويذة من التعاويذ ....وإنما تتخذه نبعاً فياضاً تستقى منه لروحك صفاء ، ولنفسك شفاء !

ليكن من دأبك فى إصباحك ألا تقع عينك أول ما تقع إلا على هذا الكتاب الخالد ، فرتل منه ما تيسر واملأ سمعك بتلك الآيات البينات ، تمتمك بسحر البيان ، وروعة الإيقاع ؛ واترك حكمتها البالغة تسرى فى وليجة نفسك ، فتضىء من جوانبها ما أظلم ، وتجلو منها ما صدىء ، فإنك لا تلبث أن تحس روحك قد انسكب عليها فيض يكفل لها الطهر ، ويثير فيها الانتعاش ...

أنعم بذلك بدءاً لنهارك الوضاح !

لتصبحن وقد شاع فى أسارير بشر ، وامتلأت نفسك بالثقة ، ولتقبلن على عملك ناشطا فى تيمن وانشراح

وليكن كذلك من دأبك فى ليلك أن يكون ذلك المصحف آخر ما تقع عليه عينك قبل أن تسلم أجفانها للمنام ، فرتل من آى القرآن ما وسعك أن ترتل ، تطهيراً لنفسك مما علق بها من

غبار يومك ؛ ونم على وقع تلك الأهازيج العوية سابحا فى أحلام طيبة كلها روح وريحان ...

أعمل بتلك السنة لا تنحرف عنها يوما ، واتخذها لك منهجاً وإماما ، وانظر كيف تصير من حال إلى حال ، وكيف يتكامل لك حظك من سعادة النفس ونعيم الروح ...

ولا تنس هذا القرآن العظيم فى غدوّ ولا رواح . فإن ألمت نازلة ، أو حزب أمر ، فاجعل من آيه لك مفزعاً تستظل فيه من حر ما تجد ، وإنك لشاعر من ساعتك بأن النقمة لا سلطان لها عليك ، وأن لك جلداً لا يهن ، وعزيمة لا تخور ...؟

أخى المؤمن :

مزية جليلة لك أن يكون ذلك الذخر الخالد من كلام الله تراثاً دانياً منك ، تلتمس فيه علاج نفسك ، وصفاء روحك ، وتمتلك به ناصية السعادة بمعناها الأسمى ، ذلك لأن هذا القرآن الكريم ينأى بك عن مكاره الأرض ، ليصل بينك وبين السماء !

محمود تيمور

الرأى العام في تعاليم الإسلام

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد محمد المدنى



من أهم الدعائم التى تقوم عليها عظمة الأمة ، وتستقيم بها أحوالها ؛ أن يكون فيها « رأى عام » ناضج مهيب ، يستلهمه قادتها والقائمون بأمرها ، ويخشاه من تحدثهم نفوسهم بالبغى عليها ، أو الانحراف عن الصراط السوى فى تدبير شئونها .

وأهل السياسة ، ورجال الاجتماع ، يحكمون للأمة أو عليها بحسب « الرأى العام » فيها ، فإذا كان من عادة الأفراد أن يهتموا بالشئون العامة ، ويحرصوا على أن يكون لهم توجيه فيها ، ووزن لقيمتها ، وتمييز بين الصالح والفاسد منها ؛ كانت الأمة بخير ، وكانت جديرة بأن تعيش وتكافح فى معترك هذه الحياة ، وتتبوأ بين الشعوب مكانة حسنة . وإذا كان الأفراد معنيين بشئونهم الخاصة فحسب ، يقصرون عليها جهودهم ، وينفقون فيها كل نشاطهم ، ولا يعنيهم بعد ذلك أصلحت أحوال المجتمع الذى يعيشون فيه أم فسدت ؛ فالأمة على خطر عظيم ، وهى سائرة بخطى واسعة إلى الفساد ثم الانحلال ثم الهلاك !

وهذا الأصل العلمى له شواهد من واقع الأمم فى القديم والحديث ، وله فى عصرنا الحاضر على وجه أخص أمثلة من الأمم القوية والأمم الضعيفة لا أحسبنى فى حاجة إلى الإطالة بذكرها . وإنما أريد أن أقول : إن هذا الأصل الذى آمن به علماء الاجتماع ، وأصبح من الحقائق المسلم بها ، قد جاء به الإسلام ، فقرره الكتاب الكريم ، وبينته السنة المحمدية فى جلاء ووضوح منذ أربعة عشر قرناً !

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

وهذه الآية هى أساس المسئولية التضامنية بين جميع أفراد الشعب ، إذ توجب على الأفراد أن يكونوا دعاة إلى الخير ، آمرين بالمعروف ، ناهين عن المنكر ، فيؤلفوا بذلك « رأيا عاماً » يُلزم كل إنسان بالاستقامة على النهج ، والتزام الصراط المستقيم ، فيما هو مولى عليه من شئون خاصة أو عامة .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن « من » فى قوله تعالى « ولتكن منكم » للتبعيض ، وأن المعنى على ذلك وجوب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجوبا كفائياً ، أى « أنها واجبة على الكل لكن بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقين ، ولو أخل بها الكل ، أثموا جميعاً » ورأى بعضهم أن « من » فى الآية ليست تبعيضية ، وإنما هى تجريدية ، كما تقول : لقيت من فلان أسداً ، وأنت تريد أن تقول لقيته هو ، والمعنى

على هذا ، كونوا أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

وهذا الرأى الأخير هو الحق ، وهو الذى نصير إليه ، ونقول به وذلك لأمور : منها أن الله سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وفى هذه الآية أسند الفعل صراحة إلى ضمير الأمة .

ومنها أن الله ذكر المنافقين والمؤمنين فى آيتين من سورة التوبة فقال : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم » « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله » .

جمل من صفات المنافقين ودأبهم الذى طبعوا عليه أنهم ملتوون عن سبيل الحق ، يمقتون الصلاح والخير ، ويميلون إلى الفساد والشر ، فيأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم عن أعمال البر والتعاون فيبخلون ، ولا يصح أن يكون الكلام على إرادة بعض من المنافقين دون بعض ، فإنه فى صدد ذكر خصائصهم وما يعرفون به ، وفى مقابل ذلك جمل من صفات المؤمنين ولاية بعضهم بعضا ، أى الأخوة والمحبة والتناصر والتعاون على البر والتقوى ، وجمل من صفاتهم أيضاً الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله ، ولا يصح أن يكون الكلام هنا أيضاً على إرادة بعض من المؤمنين دون بعض ، لا سيما وقد ذكر من الأوصاف إقامة الصلاة وما بعدها من الفرائض العينية التى تجب على كل فرد .

ومنها أن الله تعالى ختم الآية الأولى بقوله : « وأولئك هم المفلحون » أى الفائزون بما قضت به سنته من النجاح فى الدنيا ، والنجاة فى الآخرة ، وختم الآية الأخيرة بقوله : « أولئك سيرحمهم الله » أى سيشملهم برعايته وتوفيقه وفضله ، ولا يصح أن يكون الفلاح خاصاً بالقائمين بفرض الكفاية دون غيرهم ، ولا أن تكون الرحمة مقصورة عليهم ، مع أن الله قد أباح للآخرين أن يتركوا الفعل اعتماداً على كفاية حصوله ممن قام به ، وإلا لكان بمثابة أن يبيح أمراً لا يتصل به سبب من أسباب الفلاح والرحمة .

ومنها أن الله تعالى قال فى سورة العصر « إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فجعل الحكم بالخسارة عاماً يشمل جميع الناس ، ثم استثنى المؤمنين العاملين المتواصلين بالحق والصبر ، والتواصى بالحق هو الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمن لم يقم بها فهو فى خسر ، وهذا حكم عام لجميع الأفراد ، يقابل الحكم بالفلاح ، والوعد بالرحمة فى الآيتين السابقتين .

من هذا يتبين أن القرآن الكريم يعتبر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شأن المؤمنين ودأبهم ، وأن كل مؤمن مكلف به تكليفاً عينياً كما هو مكلف بالصلاة والزكاة وإطاعة الله ورسوله ، وهذا طبعاً فى حدود الاستطاعة والقدرة والأمن من ترتب مفسدة أعظم ووقوع فتنة أكبر ، وإلا سقط أو وجب الكف عنه .

وقد جاءت السنة المطهرة بما جاء به الكتاب الكريم ، فمن ذلك ما رواه المحدثون عن أبى بكر رضى الله عنه من أنه قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس . إنكم تقرأون هذه الآية « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنكم تضعونها غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » وفى رواية « ليس من قوم يُعمَل فيهم بمنكر ، ويُفْسَد فيهم بقبيح ، فلم يغيروه ولم ينكروه إلا حق على الله أن يعمهم بالعقوبة جميعاً ثم لا يستجاب لهم » ، ومن ذلك ما رواه أحمد وابن ماجه والبيهقى وغيرهم من قوله صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » وما رواه مسلم وغيره من قوله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

والحديث الأخير يعم بالخطاب سائر المؤمنين ، ويكلف بتغيير المنكر كلاً على حسب استطاعته : باليد أو باللسان أو بالقلب ، والتغيير بالقلب عبارة عن مقت الفاعل وعدم الرضى بفعله ، وهو وسيلة صحيحة لردع أهل الفساد ، فإن شعور المفسد بمقت القلوب له ونفور النفوس من فعله ، واحتقار الناس إياه ؛ كفيل برده من

الإفساد من قريب أو من بعيد ، وهو أشبه بملاج الإيحاء لأنه بمثابة نعى صامت مُلحّ يتمثله المرتكب للقبيح مدوّيا فى أذنه ، مثاراً على تبكيته وتأنيبه .

وقد مثل لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حال المؤمن بالنسبة لأخيه فقال : « المؤمن مرآة المؤمن » كما مثل لنا حال الأمة بحال راكبين فى سفينة أراد بعضهم أن ينقر فيها ، فإن أخذوا على يده نجوا ونجا معهم ، وإن تركوه هلكوا وهلك معهم .

هذا كله تربية للأمة ، وتكوين لشخصيتها ، وخلق لقوة المقاومة فيها ، تحصيناً لها من الفساد ، ودفعاً بها فى سبيل الرشاد .

وقد قص علينا القرآن أمر بنى إسرائيل لما انهدم فيهم هذا الأصل ، وسامحوا فيه وداهنوا ، فقال : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » واللعن عقوبة شديدة فظيعة ، هى الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، والحرمان من توفيقه ورعايته ، ولاشك أن أمة تصاب بذلك هى أمة هالكة بائرة ، وقد ذكر الله سبب هذا اللعن الذى عوقبوا به على لسان داود وعيسى بن مريم فبين لنا أنه العصيان والاعتداء وعدم التناهى عن المنكر ثم ذم صنيعهم فى ذلك بهذه العبارة البليغة المؤكدة بالقسم : « لبئس ما كانوا يفعلون » .

كما قصت علينا السنة النبوية ذلك لنعتبر به ، فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل ، كان الرجلُ يلقى الرجلَ فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائل » وكان متكئاً فجلس وقال : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد المسىء ، ولتأطرنه على الحق أطرا[1] — أو تقصرنه على الحق قصراً — أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ، أو ليلعننكم كما لعنهم » .

وقد تحدث الله جل علاه عن « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » فقال وعداً ، واشتراطاً عليهم : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز : الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

فبعث بذلك فى كل فرد من أفراد المؤمنين رغبة النصر والقوة والعزة على شرائط يؤديها من بينها هذا الركن الأساسى العظيم ، وقد وفى الله المؤمنين بوعده حين وفوا له تعالى بما شرط عليهم ، فلما كان شأنهم قول الحق ، والإنكار على الظلم ، وبذلَ النصح وتقويم المعوج ، والدعوة إلى الخير والمعروف ، أصلح الله شأنهم ، وأعز دولتهم ، وأخاف أعداءهم ، ولما جاملوا فى الحق ، وتسامحوا فى درء المفاسد ، ودفع المنكرات ، وضعفوا عن مجابهة المبطلين ، ضرب الله بعضهم ببعض ، وأصابهم بالانحلال ، وأصبحوا أفراداً ممزقين ، يتجاورون فى الأوطان ، دون أن يجمعهم وصف الأمة المتعاونة المتكاتفة ذات « الرأى العام » الناضج المهيب .

« وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

---

(١) أطره يأطره — من بابى ضرب وكتب — : عطفه وثناه .

الإسلام فى تركيا

للأستاذ محمد فريد وجدى



مر على تركيا عهد كانت فيه كسائر الأمم الشرقية تحت وصاية رجال الدين. فكان للدولة شيخ للاسلام له رأى مسموع فى الشئون الحكومية والسياسة الدولية، وكان له ألوف من الأتباع منبثين فى جميع الولايات يؤيدهم الشعب فى إملاء إرادتهم على الولاة . وكان يقوم إزاء هؤلاء الممثلين للدين رجال انتحلوا لأنفسهم صفة التصوف ، وليس أكثرهم منها فى شىء ، يطعّمون عقلية الناس بوجهات نظر فى الدين قد تنافيه أو تحد من سماحته . وكان الشعب التركى فى الثلاثة القرون الأخيرة قد تعب من مواصلة الجهاد ، ولكن التارات التى لأوروبا عليه لم تخمد جذوتها ، بل زادت اشتمالا انتهازاً للفرصة ، فكان هذا الشعب الجرىء الصبور يتحمل الشدائد ولا تلين له قناة نحو قرنين متواليين .

فى هذه الأثناء أكثرت تركيا من البعوث العلمية لأوروبا ، وأكثرت من حصة ألمانيا فى الناحية العسكرية ؛ وألمانيا كانت معشش الفلسفة المادية فى القرن التاسع عشر كله ، حيث نبع شيوخ الإلحاد وممثلوه ، فاقتبس منهم شبان الأتراك أكثر نظرياتهم ، ولما عادوا إلى أوطانهم أشاعوها ، فوجدت رواجاً بين المتعلمين ، وساعد على هذا الرواج تشدد بعض الشيوخ فى رجعية ظاهرة البطلان .

فلما حدثت الحرب العامة فى سنة ١٩١٤ وانتهت بهزيمة ألمانيا وأنصارها ، وكانت تركيا منهم ، وتقرر الصلح ، شعرت تركيا بأن خصومها يريدون الإجهاز عليها ، فثارت ثورة استبسال تيقظت فيها جميع مصادر قوتها وبسالتها ، وتجلت فيها روح عزتها وكرامتها ، ووقفت للدول المنتصرة على حدود بلادها والسيف فى يدها تذود عن وجودها بذماء من حياة بقيت لها . فأخضع الله أعداءها لهذا المظهر الرائع من حوادث البطولة النادرة ، وكان جزاؤها أن أعطيت كل ما طالبت به من حقوقها الاجتماعية كافة ، وحدودها الطبيعية كدولة . فكان هذا حادثاً فذاً لم يشهد له التاريخ نظيراً .

أدركت تركيا أن ما كانت قائمة عليه من الأصول ، ونابتة تحت أعبائه من التقاليد ، لا يصلح أن يقيمها على طريق الأحياء كدولة عصرية ، فعمدت إلى إزالته جملة بما فيه من خير وشر ، لتنتحل شخصية الأمم الراقية طفرة ، وغاب عنها أن ذلك إنما يمكن أن يكون والدماء لم تهدأ من غليانها بعد ؛ ولكن بعد أن يسكن جأش الأمة ، ويهدأ بالها ، وتطمئن على كيانها ، تتيقظ مطالبها الروحية ، وحاجاتها الوجدانية ، وأخصها الدين ، وأين هو ؟ التمس الناس حفاظه فوجدوهم قد لبسوا القبعات واندمجوا فى الشعب يعملون لكسب قوتهم !

نعم ، وجدوا المساجد مفتحة الأبواب تستقبل جماهير المصلين ، ولكن أين الدروس الدينية ، وأين الوعاظ والمرشدون ، وأين القضاة والمفتون ؛ بل أين الطلبة المعممون ، وأين أساتيذهم الموقرون ؟ !

الثورة قد أتت على كل هذه التقاليد ، حتى إنك كنت لو سألت عن مصير هذه الحالة ، قيل لك إن الحكومة ستصنع للدين وتدريسه نظاماً لا يمكن معه أن تستغل سذاجة العامة للدس عليه ما ليس فيه ، أو لإظهاره على غير ما هو عليه من النزاهة المثالية ، والروح الوثابة ، والمظهر المهيب . ثم يعقب ذلك سكوت طويل !

وكانت البلاد التركية غاصة بالملاجىء الدينية ، والتكايا الذهبية

تأوى إليها عشرات الألوف من أهل البطالة يستغلون بساطة النساء وضعفاء العقول، فكان الناس لا يجدون منهم رجلا يتلكأ في مشيته تحت جبته الفضفاضة، إلا حفوا إليه يقبلون يده، ويلتمسون البركة من الاتصال به، غير مفكرين في الأسباب العادية، والعوامل المادية؛ فكانت هذه الحالة من التعويل على الأوهام سبباً رئيسياً في تقاعس الدهماء عن التفكير في معترك الحياة، وعن افتقارها إلى علم ومال ودؤوب. فكان النجاح في نظرهم تابعاً للحظوظ تصيب هذا وتخطىء ذاك، ومن تصبه ترفعه إلى أعلى مما يتوق إليه، ومن تخطىء تقذف به إلى مكان سحيق!

هذه كانت الحالة العقلية للشعب التركي على نحو سائر العقليات الشرقية التي ينتظمها جميعاً رباط وثيق.

فكان رجال الثورة لا يجرؤن على إعادة الحرية الدينية خشية أن تفقدهم كلما حصلوه بجهادهم المنيف. وبعد أن مضى نحو ربع قرن على هذه الحالة نشأ رأي معتدل ناضل عن الحرية الدينية في نطاق حدده المسؤولون عن حفظ كيان الشعب، وإبعاد الغوائل عنه. أول من اقتحم هذه العقبة كان (جلال بايار) الذي كان رئيساً للوزارة وزعيماً للحزب الديمقراطي. فطلب إلى الحكومة أن تحترم دين الأمة وهو الإسلام، وأن تسمح بالعمل على نشره وبتدريسه في المدارس الابتدائية والثانوية.

فقبلت الحكومة هذا الطلب واشترطت شروطاً كلها ضمانات قوية لسلامة الإسلام من العبث، فشرطت أن لا يدرس كتاب في المدارس إلا إذا أقرت الحكومة على تدريسه فيها.

واشترطت كذلك أن لا يدرس الدين إلا للذين حصلوا على معلومات دراسية في مدارس الحكومة أو التي تعترف بها. وهذا الشرط وإن ظهر مبالغاً فيه، إلا أنه يمكن قبوله على اعتبار أن الذهن الخالي من المعلومات، لا ينبغي أن يتعلم إلا ما لابد منه من النطق بالشهادتين، وحفظ آيات من القرآن ليصلي بها. ولعلهم منعوا تعليم الجهال العلوم الدينية لكيلا يتبعوا سبيل قدماء الشيوخ في التحكم بنصوص الدين على كل شيء، وبتكفير المسلمين على أقل ما يتخيل أن فيه مساساً بالعقيدة. هذا فضلا عن مثوله بين المتعلمين على حال لا يتفق والمتفقه في الدين من الجهل ببسائط العلوم الطبيعية، وأوليات الشؤون التاريخية والاجتماعية. ومثل هذا وإن كان لا يخشى منه أقل تأثير على المتعلمين، ولكنه يعتبر كلامه عند العامة من العلم في صميم الصميم.

الخلاصة أن الأتراك بعد أن طال صممهم عن الشؤون الدينية التي كانوا يعتبرونها شخصية محضة للأفراد، عادوا فاعترفوا رسمياً بأن دين الأمة التركية الإسلام، واستخدموا هذا التعبير في اكتساب هوى الشعوب العربية. وكل هذا كان من ضروريات الثورة، فإن أخص مميزاتها إحداث انقلابات تعقبها انتقالات. وقد حدث مثل هذا الأمر في كل أمة. ففي الثورة القريبة منا، وهي الثورة الفرنسية أنكروا الدين والخالق جل وعز، ثم عادوا بعد عشرات من السنين إلى ما كانوا عليه، ولكن كانت الثورة أتت على كل ما يخشونه مما يوهن حركة الرياد عن ثمرات الثورة، أو يضيع الحقوق التي اكتسبت منها.

الأمر الذي نريد لفت النظر إليه في الثورة التركية أنها سمحت بتأسيس كلية لتعليم أصول الدين الإسلامي، ومدارس أخرى لتخريج من يتولون التعليم الديني، ولكنها اشترطت أن يكون طلبتها ممن أتموا دراستهم الثانوية في المدارس الحكومية وحصلوا على شهادة الثقافة منها.

وأحسن من هذا وأعظم أثراً في خدمة الإسلام الحق وحماية الأمة من تسرب التعاليم الضارة إليها باسم الدين أن الحكومة التركية شرطت أن لا يطبع كتاب ديني ويدرس في المملكة التركية إلا بعد أن يعرض على مجلس النواب ليدرسوه ويتباحثوا فيه ويقروه..

هذا وحده خير ما أثمرته ثقافة القرن العشرين للإسلام، فإن أي كتاب يكون قد قمش بين دفتيه من حق وباطل، وجمع بين غث وسمين، لا يمكن أن يتغفل مئات من النواب وألوف من رجال الصحافة والكتابة، ويحصل على تصريح بالطبع فيفسد عقيدة المسلمين.

هذه الرقابة الثمينة وحدها سيكون من أخص آثارها قطع دابر البدع التي شاعت بين المسلمين حتى حلت محل الدين نفسه لديهم. ولأول مرة — بعد قليل من السنين — سيشهد مصلحو المسلمين أن شعباً إسلامياً عدد أفراده عشرون مليوناً يدينون بالإسلام خالصاً من البدع التي شوهت جماله زهاء ألف من السنين في بقاع أخرى من بلاد المسلمين.

محمد فريد وجدي

يا أيها العرب! (*)

للأستاذ علي الطنطاوي



يا أيها المستمعون إليّ، مقبلين عليّ، ويا أيها السامعون وهم معرضون، يلهون في القهوات أو يتبخترون في الطرقات، إلى العالم في مكتبه، والعامل في معمله والمرأة في بيتها، والطفل في مدرسته إلى من يتفيأ الظلال من جنات الشام، ويترشف الزلال من نيل مصر، ومن يتنعم بفيء النخيل على شط دجلة، ومن يضحى بشمس القفار من فلوات الحجاز، ومن شرّق من العرب ومن غرّب ...

يا أيها العرب جميعاً .. هل تدرون ما هو أعظم خطب يمكن أن ينزل بنا. وما هي أدهى مصيبة يخشى أن تصيبنا؟ لا، ليست الاستعمار الأجنبي، فسنجاهد حتى لا يبقى في ديار العروبة، ومنازل الإسلام غاصب أجنبي، وليست مشكلة إسرائيل، فسنحارب حتى نسلم (إسرائيل) إلى عزرائيل، ولكن المصيبة أن نكفر بأنفسنا، وأن نجهل أقدارنا، وأن لا نعرف فوق الأرض مكاننا، وأن نحسب أننا خلقنا لنكون أبداً أضعف من الغربيين، وأجهل منهم، وأن ننسى أن أجدادنا لما خرجوا يفتحون الديار، كانوا أقوى منا على عدونا، وأنهم أقدموا بسيوف ملفوفة بالخرق على عدو كان أكثر عدداً وأقوى عُدداً وأضخم عمراناً، وأكثر علماً ومالاً. فظفروا به، وانتصروا عليه. وأن الأيام دول، والدهر دولاب، يهبط العالي، ويعلو الذي هبط، ويذلّ العزيز، ويعزّ الذي ذلّ، وإن دار علينا الدهر حيناً، فافترقنا وتباعدنا، ولفّنا بعد إشراق النهار ليل مظلم، أغمضنا فيه عيوننا، وأغمدنا فيه سيوفنا، فلم نبصر اللص يدخل علينا، ولم ننهض إليه لنردّه عنا، وحسبنا لطول الليل أن لا صباح له، فقد طلع الآن الصباح، وانقضى الليل، وهبّ النائمون يمشون إلى الأمام ...

إلى الأمام! وإلا فما هذه الثورات، وما هذه الوثبات؟ وما هذه الوحدة في العواطف، حتى لتهتز الشام لكل حادث في العراق، وتغضب مصر لكل عدوان على الشام، ويثور الشرق لنصرة المغرب، وتقوم مراكش لتأييد أندونسيا، وتهبّ الباكستان للدفاع عن فلسطين؟

إلى الأمام! وإلا فما لمصر، صارت فيها الفكرة العربية ديناً وكانت من قبل تعيش عامتها في ظلام العزلة، وتحيا (بعض) خاصتها في ضلال الفرعونية؟

إلى الأمام! وإلا فهل كانت تظن فرنسا ويظن عبيدها أن سيقطع الله دابرها من سورية ومن لبنان، ومن لبنان يا أيها السادة! وهل كان يظن الانكليز أنهم سيضطرون إلى الخروج من وادي مصر، وأن العراق سيقطع اليد التي تحاول أن توقع معاهدة ليس فيها خير العراق، وهل كان يظن أحد أن الهند، الهند ستتحرر وأنها ستكون في الدنيا دولة إسلامية فيها مئة مليون.

إن هذه الظاهرات، وهذه الثورات، حركات السائل الناري في باطن الأرض، إنها الهزة، ثم تكون الرجفة، ثم يكون الزلزال. ثم ينفجر البركان بالحمم، وتفتح أبواب جهنم، فلا يقف أمامها شيطان من الشياطين، ولو كان له مال (حاييم)، ودهاء (جون بول)، وقوة (الدب)، وإقدام (العم سام).

لسنا اليوم كما كنا من خمسين سنة، كنا نخاف أوربة لأننا نجهل ما عندها، وكنا نخشاها لأننا ما عرفناها، أما اليوم فقد هتك الستار، وكشفت الأسرار، وعرفنا أن هذه المدنية مدنية الظفر والناب وأنها حضارة الذئاب ...

فيا أيها العرب، فوق كل أرض، وتحت كل سماء، لقد جئت الليلة، ليلة هجرة محمد، أستحلفكم بقبر محمد، وبالمسجد

(*) أذيعت من دمشق ولم تنشر

الأنمى ، وبعهد عيسى ، وبأمجاد الماضى ، وبآمال الآتى ، أن تتقوا ربكم ، وأن لا تعتمدوا إلا على نفوسكم ، وأن تعلموا أن النازلات امتحان للهمم ، وتمحيص للأمم ، وأن لا تكفروا بالبطولة التى صبها فى دمائكم يا أيها العرب ، سيد العرب محمد ، وأن تأخذوا من سيرة محمد الذى اجتمعتم الليلة للاحتفال بذكراه دروس البطولة والعزم والنضال .

وأن تذكروا موقف محمد يوم كانت المدينة على حافة الخطر وكانت معرّضة لأقوى هجوم يمكن أن تقوم به جزيرة العرب ، وكان على الطريق إليها ثلاثة جيوش فيها عشرة آلاف مقاتل ، والمسلمون كل المسلمين يومئذ ثلاثة آلاف ، وأن المدينة قد (تسقط) بين ساعة وساعة ، ويقضى على الإسلام ، فما ذا صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ذا صنع المسلمون ؟

هل تحيروا حتى لا يدرون ما ذا يصنعون ، فجعلوا يرتجلون الخطط ، ويبتدعون الآراء ؟ هل كفوا أيديهم عن العدو وأطلقوا ألسنتهم عليه ، فرموه بالخطب والتصريحات ؟ هل أضاعوا الفرصة وأمضوا الأيام فى الاجتماعات والمؤتمرات ؟ هل اختلفوا وتنازعوا ؟ وهل فكر الأغنياء فى أن يستأجروا بيوتاً فى الأرياف ليفروا إليها ، إذا نزلت الملمات وكانت (الغارات) ؟

لا يا سادة .. لم يفكر فى الفرار إلا (المنافقون والذين فى قلوبهم مرض) . أما المسلمون فكانوا يعلمون أن المسلم الذى يفرّ من بلده إذا دهمه العدو لا يكون مسلماً ، وأن الإسلام يفرض القتال عند ذلك على الرجال والنساء فرض عين كفرض الصلاة .

لا ، ولم يعتكف رسول الله فى مسجده ، ليدعو عليهم ، ولو دعا لاستجاب الله دعاءه ، ولكنه أراد أن يأتى البيوت من أبوابها ، ويجر النتائج بأسبابها ، ويعلم هذه الأمة كيف تصنع إذا دهمتها المخاوف ، وحاقت بها الأخطار ، وشرع بحفر الخندق والخندق هو (الملجأ الفنى) من (غارات) تلك الأيام ، ولم يكن العرب يعرفون الخنادق بل هى من طرائق العجم فى قتالها .

وكذلك كان محمد يعدّ لعدوه أحدث المخترعات الحربية ، ويفاجئه بـ (أسلحة جديدة) لم يسمع بها . لم يأمر بحفر الخندق وهو مقيم فى داره ، هادئ هانئ مستريح ، بل عمل معهم ، بيده قبل أيديهم ، حمل التراب حتى غطى بطنه التراب ، وجاعوا فجاع معهم ، وربط على وسطه من الجوع الحجر ، وكان أقواهم يداً ، وأثبتهم قلباً ، عرضت صخرة لم تعمل فيها المعاول ، ولم تؤثر فيها سواعد الرجال ، فلجأوا إلى محمد ، فلم يستطع أن يكسرها إلا ساعد محمد ، وهو يعمل بلا قميص شأن الرياضى القوى ، لا شأن هؤلاء (المشايخ) الذين يمشون ورؤوسهم محنيّة ، وأطرافهم متخاذلة ... كأن قد هدّهم المرض !

أعدّ الخندق لـ (الدفاع السلبى) ، ثم خرج مع المسلمين لـ (الدفاع الإيجابى) ، وولى على المدينة ابن أم مكتوم ما اختاره لعصبية أسرة ، ولا لجامعة حزب ، ولا لصلة قرابة ، بل لأنه أحق بالولاية وأولى بها ، ولم ينازعه أحد ولايته لأن الأمة التى تشتغل بالجزئيات ، وتتنازع على الكراسى ، والعدو على الأبواب لا تستحق الحياة .

وأحاط العدو بالمدينة ، واشتد الخطب وعظم البلاء ، وقلّت الأقوات ، وجاءت فى خلال ذلك قاصمة الظهر بأن الحلفاء من يهود قريظة ، خانوا العهد ، وأخلفوا الوعد ، وغلبت عليهم نجاسة طباعهم ، ونذالة أخلاقهم ، صفة اليهود أبداً ، أينما كانوا وحيثما وُجدوا . فلم يفارق محمداً ثباته وعزمه ، وبعث يتحقق الخبر ، وأمر رسوله أن يعلن إن وجده كذباً لتقوى العزائم ، وتشتد الهمم ، وإن وجده صدقاً لحن له به ، ولم يخبر به الناس ، لئلا تكون الأسرار العسكرية حديث المجالس ، وأسمار السمار .

وأحسّ بالأمر المنافقون ، وما تخلو أمة من (منافقين ...) ومن دعاة الشر وبغاة الهزيمة ، فأعلنوا ما كان مضمراً ، و(زاغت الأبصارُ ، وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ، وتظنون بالله الظنونَ ، هنالك ابتُلى المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً . وإذ يقولُ المنافقون والذين فى قلوبهم مرضٌ : ما وعدَنا اللهُ ورسولُه إلا غُروراً . وإذ قالتْ طائفةٌ منهم يا أهلَ يثربَ لا مُقامَ لكم فارجعوا ، ويستأذنُ فريقٌ منهم النبىَّ يقولون إنَّ بيوتنا عورةٌ ، وما هى بعورةٍ ، إنْ يريدونَ إلا فراراً) . واجتمع على المسلمين العدو القوى والبرد والجوع وخيانة الحليف وتثبيط المنافق ، فقضى رسول الله على (الانقسام الداخلى) وصبر على الحصار ، ثم محمد

الهجوم ، واستعمل كل سلاح ، لحفر الخندق ، وحارب بالسيف وحارب بالحيلة . فكان الظافر في الحرب الدفاعية ، وفي الحرب الهجومية . وفي حرب السياسة ، وفي حرب الأعصاب . وكان له النصر المؤزّر .

واذكروا بعد ذلك كم جُزنا من امتحان ، وكم نجونا من خطوب . يوم كرّ علينا الشرق كله بهمجيته وكثرته وقوته جيوش التتر يقودها الكلب الكلب : هولا كو . فرت كالسيل الحاطم ، فاجتاحت دول الإسلام (وما كان ينبغي أن يكون للاسلام إلا دولة واحدة) ؛ حتى إذا عبثت بالخلافة ، وداست بغداد ، وفعلت في دنيا المسلمين الأفاعيل ، ولم تبق منها إلا ولايات متباعدات ضعيفات . وقف لها شيخ واحد . شيخ لم يتخذ الدين سُلّماً للدنيا ، ولا الصلاح شبكة المال . ولم يكن همّه مشيخة يزهى بها ، ولا ضياع يقتنيها ، ولا سيارة يركبها . ولا وظيفة يحظى بها . لم يكن يمدّ يده للناس يقول قبلوها وامسلأوها مالاً ، ولا يقول تصدقوا بأموالكم ليأخذ هو الصدقات ، قد احتقر الدنيا في جنب ما عرف من نعيم الآخرة ، وهان عليه أهلها ملوكهم وسوقتهم لما وقر في نفسه من عظمة الله شيخ اسمه العز بن عبد السلام .

أثار هذا الشيخ مصر ، حتى انتصر جيش مصر الضعيف على جيوش التتر القوية ، وحفظ اللهُ به في عين جالوت الدين والدنيا ، وأنقذ به الإسلام والحضارة . وما انتصر جيش مصر إلا بالإيمان الذي أثاره في النفوس هذا الشيخ .

واذكروا يوم كرّ علينا الغرب كله . يقذفنا بالجنود من كل لون . ويرمينا بالأسلحة من كل نوع . وكنا دويلات وإمارات متخاذلات متقاتلات . فنصرنا الله على الغرب كله برجلين اثنين وما انتصرا إلا بالإيمان والإخلاص ، وإن تركة صلاح الدين الأيوبي بطل الدنيا ، كانت ستة عشر ديناراً ، لم يورث غيرها !

* * *

يا أيها المستمعون جميعاً . سألتكم بالله : انسوا لحظة واحدة جاهكم ومطامعكم ، وحبكم وبغضكم ، ومشاغل بيوتكم وأسواقكم وفكروا في نفوسكم ، فيما كان عليه أجدادكم ، وما انتهت إليه حالكم . هل صنعتم مثلما صنع النبي يوم الخندق ، هل عندكم لليوم مثل الثلاث صلاح الدين . هل لديكم مثل الشيخ عز الدين هل أعددتم لليوم العبوس عدته . هل أحسستم إلى هذه الساعة أنكم في حرب ؟

يا ناس !

هل تعيش أمة في الحرب مثلما كانت تعيش في السِّلم . لا تنقص شيئاً من لهوها وتبذيرها وغفلتها ، وإضاعتها أموال العامة وأموال الخاصة فيما لا ضرورة له ، ولا جدى منه ، وإنفاقها في (الكماليات) التي يذهب ثمنها إلى عدوها ، فيرجع إليها رصاصاً وقنابل تنزل على دورها وصدورها ؛ هل تختلف أمة على المنائر ، وتتنازع على المناصب ، والعدو قد غشيها في أرضها ؟ هل ينفق في الأمم الحية المحاربة قرش واحد إلا في شراء النصر ؟

يا ناس !

إني أكون خائناً لديني ولأدبي إذا أنا غششتكم في يوم هجرة نبيكم ، أو كتمت الحق عنكم . إنكم طالما تنكرتم لدينكم ونسيتم أقداركم ، واحتقرتم نفوسكم ، وأضعتم سلائقكم الخيّرة ، وخلائقكم النبيلة ، في تقليد الأوربيين في التافه من شئونهم ، وفي إعظام الأوربيين والرعب منهم . ولا سبيل لكم إلى النصر إلا بأن تعودوا فتتخلقوا بأخلاق النضال التي خلق بها أجدادكم نبيكم ، أجلوا كل اختلاف بينكم إلى نهاية هذه الحرب ، وأرجئوا كل نفقة لا ضرورة لها ، ولهو لا داعي إليه . وواجهوا العدو صفاً واحداً ، وقلباً واحداً ، قد وقفتم على الظفر قوا كم كلها وأموالكم ، واعلموا أنه لن ينفعكم والله منصب ولا مال ، إن تركتم عدوكم يقوى بضعفكم ، ويشتد بتخاذلكم ، ويزيد بنقصكم

إن الدنيا مقبلة على غمرات سود ، ومرتقبة أحداثاً جساماً ، وستكون معركة لا يخرج منها إلا البطل . فيا أيها العرب : تيقظوا وتنبهوا وثقوا بربكم وعودوا إلى خلائقكم . واعرفوا أقداركم ، واعتمدوا على نفوسكم ، وأيقنوا (إن فعلتم) أنكم منصورون منصورون منصورون ...

يستحيل أن تغلبكم كلاب يهود !

(دمشق) **علي الطنطاوي**

الشهيد

للأستاذ محمود الخفيف

(إلى روح تلميذى الشهيد ا . و . الذى قتل فى سبيل الله)



رأى الموت جهما فما أحجما   وأوحى له الكبرُ أن يَبسِما
فتى همه كان خوض الردى   وكم شق موجا له أقتما
وظل على صهوات الحتوف   إلى أن هوى ، البطل المُعلما

فتى كان فى الخُلق أوفى الخصال   كما شاء أن يتناهى الكمالْ
كما اعتدل الرمح عودٌ له   وحد الحسام له والصقال
كأن من الصخر قلبا له   وكم رفَّ قبلُ لسحر الجمال

فتى مادرى قط معنى القعود   ولا عرفت روُحه من قيودْ
له همة إن تداعى الرجال   يقصر عنها العُقابُ الصَّيود
على اللهو ضنٌّ بأيامِه   وبالدم فى كل يومٍ يجود

له دعوة المجد أشهى نشيد   وأحلى الغناء رنينُ الحديدْ
إذا ساورته طيوف المنى   مشى المنايا بعزمٍ جديد
وإن باح صَبٌّ بأحلامه   عن النصر حُلماً له لن يحيد

فتى كان فى السلم حلو الشباب   وإن كان مراً غداة الضرابْ
وضيء المحيا ترى كِبْرَهُ   وقد مازجته السجايا العِذاب
إذا الليل ضجَّ بسُمَّاره   توقدَ روحٌ له كالشهاب

وإن عصف الرأى كان الأريبا   وكان الرفيق البليغ الأديبا
وإن نُدِبَ الناسُ للصالحات   تردَّي من الفضل ثوباً قشيبا
فتى أكملَ الحب أوصافَه   فبات إلى كل قلبٍ حبيبا

وكم رشقته سهام الجفون   وأومأ حيث استوى السامرون
وقار البطولة فى ناظريه   وإن ضجَّ فى مسمعيه المجون
وتصحو له ناعسات العيون   ويغفو فما مسه من فتون

فتى كان وهو الأبيُّ الطليق   أسيرَ هوى قلبه لا يُفيقْ
وكم ذاقَ من نشوةٍ قلبُه   وكمْ ذاق مثلَ عذاب الحريق
وعف هواهُ فما اعتاقهُ   ولا صدَّهُ عن سواء الطريق

وهام بها زهرة ناضره   أسيرته وله آمره !
ويعصي الضلالة فى حبها   وتوحى هداه له الساحره !
وفى كل طُهرٍ يرى وجهها   ويناشق أنفاسها العاطره

فتى عرفتهُ السهولُ الفِساحْ   فكم هام فيها يحيِّى الصباحْ
ويملأهُ السهلُ حريةً   وتوحى إليه الروابى الطماح
وكم أبهجتهُ مجالى الضحى   ولذ الأصيلُ له فى الرَّواح

وكم راعهُ مهرجانُ الربيع   وأسكرهُ كلُّ لحنٍ بديع
وأوحى له الخُلدَ مِنْ عيشه   مُنًى ناضراتٍ وشملٌ جميع
عصىٌّ على الرخصِ مستكبِرٌ   خفيفٌ إلى كل حُسْنٍ مطيع

وكم كان يأمل فيه الأمل   ويرصدُ من عزمه ما اكتمل

لطمةٌ على خد...

للأستاذ محمد سعيد العريان



— ١ —

هذا المجلس الحافل بأسباب الأنس والمسرة، الحالى بالزَّهر والرَّيحان، وبالقيان والندمان على الربوة المعشبة الظليلة فى أعلى « اليرموك » — قدْ حان أن يُطوى بساطه فليس فيه بعد اليوم أنيس ولا سامر ...

وهذه الأباريق فى أيدى السُّقاة المُرْد يطوفون بها على ندمان الملك ليفرغوا فى كأس كل نديم جرعةً من خمر وفى قلبه لذعة من جمر — يوشك أن يفرغ ما فيها من الشراب وتفرغ منها أيدى السقاة والندمان ...

وهذه الأقداح المترعة فى أيدى القوم تتلامس حافاتها كأن رنينها ضحكات غانيات سُكارى — قدْ حان أن تتحطم ويُراق ما فيها من الشراب فتنتشى الأرض ويصحو السكارى ...

وهذه النمارق المصفوفة والزرابى المبثوثة والكراسى المنضودة عن يمين صاحب العرش وشماله — يوشك أن ينتثر عقدها ويشتّ جمعها، فليس فى أعلى « اليرموك » بعد اليوم عرش ولا تاج ولا صاحب سلطان، وتغدو « مملكة غسان » ذكرى، ويخْمُلُ ذكرُ « جبلة » وآباء جبلة من ملوك قحطان فى الشام ...

* * *

كذلك كان « جبلة بن الأيهم » ملك غسان يحدث نفسه وأصحابه من حوله يخالسونه نظرات خاشعة فيها قلق وريبة، قد جمدت فى أيديهم أقداح الشراب فلا تدنو منها شفة، وأعولت فى آذانهم رنات المثانى والميدان فلا تهتز لها نفسٌ هزة طرب، وعبقت أرواحُ العطر والبخور فى جوّ المجلس خانقة، فلا يكاد ذو نفَس من ندامى الملك يملأ رئتيه ...

أكان قلقهم وانقباضهم لأنهم يعلمون ما تجيش به نفس الملك فى تلك اللحظة من الخواطر السود، أم كان ذلك لأنهم لا يعلمون ...؟

وكانت جارية عاطفة على عودها فى صدر المجلس تداعب أوتاره بأنامل رخصة وهى تغنى من شعر حسان:

لله درُّ عصـــابة نادمتهم ... يوماً بجلِّق فى الزمان الأول

يسقون من ورد البريص عليهمو ... بَرَدَى يصفّق بالرحيق السلسل

أولاد جفنة حول قبر أبيهمو ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

يُغشَوْن حتى ما تهرُّ كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبِل

بيض الوجوه أعفّة أحسابهم ... شُمُّ الأنوف من الطراز الأول

ورفع الملك رأسه وهتف فى صوت تتبين فيه مرارة اليأس والأسى:

وشيخ أبٌ كم تأمي به ... وأم دعا قلبها وابتهل

وتُلقى على غده أمّةٌ ... رجاها وترقب فيه البطل

—

أجاب إلى الموت داعي الفداء ... وجن اشتياقا ليوم اللقاء

وخاض المنايا على هولها ... وأوغل فى حرها كيف شاء

وكيف تعاف الردي نفسه ... وفى مصرع الحر أقوى البقاء؟

—

وكم بعث الموت من عاصفه ... بها الأرض من حوله راجفه

وكم جن فيها جنون القتال ... وزلزل من أنفسٍ واجفه

وكم أقدم البطل المستميت ... ومن فوقه رعدةٌ قاصفه

—

وكم بات تنزف منه الجراح ... وأنّاته أغنيات الكفاح

ويغفو وفى نفسه ومضة ... تريه المنية نصراً يتاح

فبالموت يحيا موات النفوس ... وتنهض العزمات الصحاح

(البقية فى العدد القادم) المقيف

— حسبك يا فتاة !

وخيم الصمتُ على المكان ، وتماقت بالملك عُيونُ ندمائه وبطانته ؛ وتسلل القيان والغلمان واحداً إثر واحد ليهيئوا للملك وأصحابه خلوة ليست كما ألف الملك وألفوا من خلوات الأنس والسعادة ...

وانحدر الملك عن سريره ليفتعد الأرض ، ووضع عن رأسه تاجه ، وانحدر أصحابه عن كراسيهم فجلسوا بين يديه ، وقد أيقنوا أن أمراً ذا بال يوشك أن يحدث أو يسمعوا نبأه ...

ومضت فترة صمت قبل أن يبدأ الملك حديثه إلى ندماه من أشراف غسان ولخم وجذام ؛ ثم نطق :

— قد علمتم يا بني العم ما كان من أمر العرب والروم في هذه الأرض ، فليس لأصحاب « هرقل » بعد اليوم مقام في الشام بعد أن غلبهم هؤلاء العرب النازحون من البادية على أرضهم وديارهم ، وأجلوهم عن أركة ، وتدمر ، وحوران ، وبصرى ، ودمشق ، وأجنادين ، وأذاقوهم الهوان عند «اليرموك» وفي حمص وتوشك أن تسقط في أيديهم حلب وقنسرين في الشمال ، وبيت القدس في الجنوب ...

وصمت الملك برهة ، وهو يُجيل عينيه فيمن حوله ، ثم استأنف :

— وقد علمتم يا بني العم ما كان لنا من الجاه والسلطان في هذه البقاع ، حيث أقمنا لأبناء غسان في الشام عرشاً لم يزل يتوارثه آباؤنا ملكا عن ملك منذ قرون حتى آل إلينا ، لا العرب من أبناء عمومتنا في الشرق يطمعون أن ينالوه ، ولا الروم في الشمال ؛ فكانت مملكة الغساسنة هي الحجاز بين العرب والروم ، وهي لهؤلاء وأولئك سوق التجارة ، وموئل السلام والحضارة ، قد سالمنا العرب لأنهم إخوتنا في النسب ، وشركاؤنا في التجارة ، وسالمنا الروم لأنهم منا حيث علمتم من الحلف والمودة ، قد رضوا منا بالأتاوة ندفعها كل عام إلى قيصرهم في القسطنطينية ، وبالكتيبة من شبابنا يحاربون معهم تحت رايتنا إذا احتاجوا في بعض حروبهم إلى المدد والمونة ؛ ولم يكن يدور في وهمي يا بني العم أن تسخر المقادير منا ومن حلفائنا الروم سخريتها هذه الأليمة ؛ فنصبح ذات يوم لنرى عرب الشرق قد دخلوا علينا الشام من أقطارها وباتوا يهددون عرش الغساسنة وعرش قسطنطين في وقت معاً ؛ ولكن كل ذلك قد كان ولم يكن لنا بدفعه يدان !

قال كبير القوم :

وقاك الله يا مولاي وجنّبك العوادي ، إن بيننا وبين العرب ما نعلم من النسب ، ومن حسن الجوار والمودة ؛ وقد علمنا إلى ذلك أنهم لم يطرقوا ديارنا غزاة ولا فاتحين ، ولكنهم أهل دين يدعون إليه ، وأصحاب كتاب يؤمنون بما فيه ؛ قد آمنوا بموسى وعيسى ومحمد ؛ فليس بيننا وبينهم من أسباب الخصام إلا أن نؤمن بما آمنوا ، وقد سبقناهم إلى النصرانية ، حين كانوا غارقين في الوثنية يتعبدون لآلهة من طين ؛ فلا علينا إذا سبقونا إلى الوحدانية وثبا أن نتبعهم ونؤمن بنبيهم ؛ فإن ذلك خليق بأن يحتّ بيننا وبينهم أسباب الخصام والعداوة ، ولأن ندفع الأتاوة لملك عربي من أبناء عمومتنا في يثرب ، خيرٌ من أن نكون خولاً لقيصر الروم في القسطنطينية ؛ وإني لآمل يامولاي أن يكون جبلة بن الأيهم في الإسلام أعز سلطاناً منه في الجاهلية ويتسلسل ملك الغساسنة في أبنائك وحفدتك على عرش الشام إلى يوم الدين !

ورفّت ابتسامة على شفتي الملك وهو يقول :

— هو ما قلت يا ابن العم ؛ وإنما بدأتُ الحديث معكم رجاء أن ننتهي إلى ذلك الرأي ؛ فقد عزمتُ منذ اليوم أن أكتب إلى عمر ، أمير المؤمنين في يثرب ، أعلمه بذلك وأستأذنه في القدوم عليه مُسلماً ...

— ٢ —

كان مقدم جبلة بن الأيهم إلى المدينة يوماً مشهوداً ، قد احتشد له الخلق من كل فج ليشهدوا موكب الملك الغساني في أبهته وسلطانه ، قد لبس ثياب الوشي منسوجاً بالفضة والذهب ، وعلى رأسه تاج الغساسنة تتضوأ خرزاته تحت الشمس ، ويتدلى منه قرط مارية جدته الذي تتحدث به أمثال العرب ، وقد تكنفه عن يمين وشمال ، وأمام ووراء ، خمسمائة من فرسان عك وجفنة ، يلبسون مثله ثياب الوشي ، وتلمع على رءوسهم بيضاتهم ، وتبرق مقابض السيوف في أيديهم .

موكبٌ لم تشهد المدينة مثله منذ كانت ، فلم يبق بها يومئذ أحد إلا خرج يتفرج ، حتى النســاء والصبيان ، وحتى الشيوخ والعجزة ؛ صورةٌ فريدة من أمجاد غسان ، أو هي صورة من أمجاد الإسلام في مطلع فجره لم يزل يتحدث عنها التاريخ حتى اليوم ، وإلى الغد ، وإلى الأبد !

والتقى جبلة بن الأيهم وعمر بن الخطاب ، وشهد ملك غسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وأقام جبلة بالمدينة حتى جاء موسم الحج ، فأعد عدته للرحلة إلى مكة ليؤدي الفريضة المكتوبة .

— ٣ —

في صعيد مكة — حيث يلتقي المسلمون كل عام من مشارق الأرض ومغاربها يطوفون بتلك البنية التي أقامها إبراهيم وإسمعيل منذ القدم — لا يتميز ملكٌ من سُوقة ؛ كل الطائفين عُراة إلا من إزار غير مخيط يستر أبدانهم ، ليس على رءوسهم تيجان ولا عمائم ولا قلانس ، حفاة إلا من خفاف لا تستر الأقدام من ظاهر ، حُشودٌ هائلة قد وفدت من الشام واليمن ، ومن عمان والبحرين وحضرموت ، ومن مصر وبلاد البربر ، ومن المدائن والقادسية ، ومن وراء الجبال والرمال والبحار الصاخبة بالموج ؛ لا عربيٌّ في ذلك الحرم ولا أعجمي ، كلهم مسلمون يدينون بهذا الدين الواحد ، هو «جنسهم» حين ينتسبون ، وهو رباط قلوبهم حين يلتقون وحين يفترقون ، تحيتهم حين يلتقون سلام ، وحديثهم تلبيةٌ وتسبيح ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

مشهدٌ عميقُ الأثر ، بليغ الدلالة على أسمى معنى من معاني الإخاء والمساواة والمحبة ...

وكان جبلة الغساني يطوف مع الطائفين حول البيت ، عاري الرأس ليس عليه تاج ولا ديباج ، إلا إزاراً غير مخيط قد لفّ جسده وتدلى عن كتفيه وانجر وراءه ... وعن يمينه وشماله ، وقدامه ومن ورائه ، آلاف من الطائفين قد اتزروا مثل إزاره ، يتزاحمون بالمناكب ويطأ بعضهم أقدام بعض ، ولهم ضجيج وعجيج وهتاف باسم الله صاعدٌ إلى السماء ...

وتعثر جبلة في زحمة الطائفين وهمّ أن يقع ، حين وطئ إزاره طائفٌ من فزارة لحله ، وحميَ أنف الملك الغساني فالتفت وراءه مُغضباً ليرى الفزاريَّ الذي وطئ إزاره ، فيبرر بزوة أصحاب السلطان ولطم أنف الفزاري فهشمه ...

وعبرت لحظة اضطراب لم تطل ، ثم استأنف الحجيجُ طوافه وهُتافه ؛ لم يقطع ضجيجهم وعجيجهم إلا صيحة هاتف مستصرخ : واعمراه ! !

واستمع عمر إلى دعاء المستصرخ فدعاه إليه ...

— من أنت يا رجل ؟

— امرؤ من فزارة ...

— وما دعاك إلى الصراخ في بيت الله وحين طواف الحجيج ؟

— طائف من الطائفين لطمني فهشم أنفي وأسال دمي !

— أتعرفه ؟

— لا أعرفه اسماً ولكني أعرفه صفة ...

— إذن نُقيدك منه !

ووقف الفزاريُّ وإلى جانبه غلام عمر يتصفحان وجوه الناس حين يُنصرفهم من الطواف ، حتى مرَّ جبلة فأشار إليه الفزاري : هو ذاك !

وسيق ملكُ غسان إلى مجلس أمير المؤمنين عمر ، فأوقف بين يديه ووقف الفزاري يحاذيه كتفاً إلى كتف ...

— ما ذا تقول يا أخا فزارة ؟

— هذا لطمني فهشم أنفي !

— وما تقول يا جبلة ؟

— إنه وطئ إزاري لحله ، فلولا حُرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه !

قال عمر مغضباً :

— على رسلك يا جبلة ! أما أنت فقد أقررت ، فإما أن ترضيه وإما أقدته منك !

— أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة !

— يا جبلة ، إنه قد جمعك وإياه الإسلام ، فما تفضُله بشيء إلا بالتقوى !

— رويدك يا عمر ، لقد — والله — رجوتُ أن أكون

في الإسلام أعزُّ مني في الجاهلية ؛ وقد كنتُ من الشرف والمهابة في الجاهلية حيث علمتَ !

— وإني لأرجو لك من العزة بالإسلام ما ترجوه لنفسك ؛ ولكنه أخٌ مسلم يطالب قوداً من أخٍ مسلم !

— إذن أعود إلى النصرانية ... لا يلطمني بدويٌّ بوّالٌ على عقبيه !

— إن تنصرت ضربت عنقك !

انطبقت شفتا جبلة على كلام كثير لم يلفظه ، على حين ارتفعت أصوات كثيرة من وراء .

أولئك شيعة الفزاري وقومُ جبلة يتلاحَوْن حتى توشك أن تقع بينهم فتنة .

وغامت سحابة من الهم على جبين الملك ، وصمت برهة ثم نطق :

— أخِّرني إلى غد يا أمير المؤمنين .

— لك ذلك يا جبلة !

— ٤ —

لم ينكر أحد في البادية أمر تلك القافلة التي تُغِذُّ السير في جنح الليل متجهة إلى الغرب ؛ ليس في سِمات هذا الركب ما يبعث الريبة ... جماعة من البدو ومن الحضر على ظهور دوابهم ، قد جعلوا يثرب وراء ظهورهم إلى غاية يقصدونها ، وما أكثر قوافل البدو والحضر على ذلك الطريق في تلك الأيام . لعلهم بعض المتطوعة يقصدون إلى الشام مدداً للمجاهدين، أو لعلهم بعض التجار ... لم يخطر في وهم أحد رآهم أنهم أشراف لخم وجذام وغسان ، وأن معهم جبلة بن الأيهم ، صاحب القرط والتاج وعرش جلق الفيحاء ...

وانتهت القافلة إلى تخوم الروم ، ثم استأنفت السير إلى القسطنطينية . وفي ضيافة قيصر ، أقام جبلة بن الأيهم ، آخر ملوك غسان ، عزيزاً مكرّماً ، قد أقطعه القيصر قصراً ملوكياً ، وأوقف على بابه القهارمة والحجاب والعدد الجم من الرجال والفرسان ؛ وفي مجلسه من ذلك القصر الملوكي كلُّ ما تتوق إليه نفسٌ من أسباب الترف والبهجة ، وكل مظاهر العز والسلطان . ملِكٌ له عرش وتاج ، وقهارمة وحجاب، ووزراء ومستشارون؛ ولكن حدود مملكته لا تتجاوز جدران قصره ؛ وما ذا يعنيه أن تكون مساحة مملكته ، ما دام له مجلسه وعرشه وتاجه وكلٌّ من حوله يأتمرون بأمره ويَدينون لسلطانه ؟ وما هي أُبهةُ المُلك إلا ذاك ؟ ...

وترادفت السنون ، وانبسط ملك العرب في الشرق والغرب ، وفي الشمال والجنوب ، حتى ناخوا الروم في صميم بلادهم ...

ووفد رجل من أصحاب عمر بن الخطاب إلى القسطنطينية ذات يوم رسولا إلى قيصر في شأن مما يتراسل من أجله الملوك ، فرغبت نفس الرجل في زيارة جبلة في قصره ذاك ؛ فلم يزل يتلطف في الإذن حتى أذن له ... فدخل إليه مجلسه ... ورأى رجلا أصهب ذا سبال ، وكان عهده بجبلة أسمر أسود اللحية والرأس ؛ فلما نظر إليه أنكره ، ثم عرفه ، ذلك أن جبلة دعا بسُحالة الذهب فذرّها في لحيته حتى عاد أصهب ، وكان قاعداً على سرير من قوارير قوائمه أربعة أسود من ذهب . فلما عرف جبلة الرسول رفعه معه إلى السرير ، وجعل يسائله عن المسلمين ، وعن عمر ، وعما فتح الله على المسلمين من البلدان والممالك ، والرسول يجيبه عن كل ما يسأل ، وجبلة يسمع وشفتاه تختلجان ، وعلى وجهه تتعاقب ألوان ...

ثم أومأ جبلةُ إلى خادم بين يديه ، فذهب مسرعاً ، وإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام ، فوُضعت ، ونصبت موائد الذهب وصحاف الفضة ، فأكل جبلة وأكل ضيفه ، فلما رُفع الطعام جيء بطساس الفضة وأباريق الذهب ، فغسلوا أيديهم؛ ثم أومأ جبلة إلى خادم بين يديه ، فر مسرعاً ، وإذا خدم معهن الكراسي مرصعة بالجوهر ، فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره ، ثم اقتربت أصوات ناعمة ، وإذا عشر جوار مطمومات الشعر متكسرات في الحلي عليهن ثياب الديباج لم ير مثل جمالهن ذو عينين ، فأقعدن عن يمين الملك ، ثم اقتربت أصوات ناعمة ، وإذا عشر جوار أخرى ، فأجلسن على الكراسي عن يساره ، ثم سمع صوت رقيق فاتن ، وإذا جارية كأنها الشمس حسناً ، على رأسها التاج ، وعلى ذلك التاج طائر ذو جناحين ، وفي يمناها جامة فيها ماء ورد ، فأومأت الجارية إلى الطائر ، فطار من رأسها حتى وقع في جامة ماء الورد ، فاضطرب فيه لحظة ؛ ثم

أومأت إليه ثانية ، فطار حتى نزل على صليب فى تاج جبلة ، فلم يزل يرفرف حتى نفض ما فى ريشـه من ماء الورد على التاج ؛ وابتسم جبلة ، ثم التفت إلى الجوارى اللاتى عن يمينه ، فاندفعن يتغنين : يخفقن بعيدانهن ويقلن من شعر حسان :

لله در عصـــابة نادمتهم ... ...

ثم التفت إلى الجوارى اللاتى عن يساره ، فاندفعن يتغنين :

لمن الدارُ أقفرتْ بمعان بين أعلى اليرموك فالصمان

ولمت دمعتان فى عينى جبلة ، ثم انحدرتا حتى توارتا فى لحيته ، واختلجت شفتاه اختلاجة هم وأسى . قال له ضيفه العربى دهشاً :

— أتبكى يا جبلة وأنت من هـذا النعيم فيما لا يخطر على قلب بشر ؟!

قال جبلة وقد تتابعت عيناه :

— هيهات هيهات يا أخى ؛ تمنيتُ لو لم يكن كلُّ ما كان وعشتُ بين العرب واحداً من قومى !

قال صاحبه :

— ويلطمك فزارى على أنفك فيهشمه كما هشمت أنفه !

— ويلطمنى فزارى على أنفى أو يلطمنى عمر ؛ فذاك أعزُّ لى من شتات دارى وجوار غير أهلى ...

ثم غلبه مدمعه ، وحضرته أشجانه ؛ فراح ينشد :

تنصرتِ الأشرافُ من عار لطمة وما كان فيها لو صبرت لها ضررْ
تكنفنى منها لجاجٌ ونخوة وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى رجعت إلى الأمر الذى قال لى عمر
وياليتنى أرعى المخاض بقفرة وكنت أسيراً فى ربيعة أو مضر
ويا ليت لى بالشـام أدنى معيشـة أجالس قومى ذاهب السمع والبصر !

— ٥ —

قال عمر ، وقد عاد إليه رسوله من القسطنطينية فوصف له ما رأى وما سمع :

— رجوت أن يشرح الله صدره للاسلام ويفىء إلى الخير ؛ فهلا منَّيته — لو أناب إلى الله — بأن يكون فى الإسلام عزيزاً ممنَّعاً ؟

قال الرجل :

— أحسبه — يا أمير المؤمنين — أهلا للانابة والفىء إلى الله ، لو ضمن أن يكون له فى الإسلام عرش وتاج ، وأن يزوجه أمير المؤمنين إحدى بناته ليكون له إلا الإمارة سبب !

فابتسم عمر وقال :

— أما صهرى فهو — والله — كفء ؛ وأما الإمارة فوددت لو أنه علم أنها ليست مغنما يُرجى ولكنها تكليف يفدح . إذهب إليه عن أمرى فادعه إلى الحضور على شرْطه !

وعاد الرسول من حيث أتى يريد جبلة فى قصره بالقسطنطينية ليبلغه رسالة عمر ، ولكنه لم يكد يبلغ حاضرة الروم حتى لقى الناس قافلين من تشييع جنازة جبلة بن الأيهم !

ومات آخر ملوك الغساسنة على الجاهلية وغلبته شقوة الأبد ؛ ترفعاً بنفسه عن المساواة برجل من قومه !.

محمد سعيد العريان

عبقرية محمد الإنسانية

للأستاذ أنور المعداوى

[مهداة إلى أنزيات الإنسان]



إنسان عظيم ... وذلك أصـــدق ما يقال فيه وغاية ما يقال .

محمد الرسول فى مواقف الرسالة ، ومحمد البطل فى مواقف البطولة ، ومحمد الصديق فى مواقف الصداقة ، ومحمد الوالد فى مواقف الأبوة ،

ومحمد فى كل موقف من مواقف العبقرية يحتل من نفسى مكاناً لا يدانيه مكان ... ولـكن جانباً من جوانب هذا العظيم الذى يعلو أبداً فوق مستوى الأقران والنظراء ، يهزنى هزاً عنيفاً كلما تمثلته فى طوايا الخاطر أو بعثته من ثنايا الشعور ؛ ذلك هو محمد الإنسان !

قد ينظر غيرى إلى الجانب الإنسانى فى حيـاة الرسول من خلال المنظار الذى ألفه الناس ، حين يتخيلون الإنسانية مجموعة فضائل يجوز أن يشترك فيها العظيم وغير العظيم ... هذا المنظار الذى ينظر من خـلاله إلى إنسانية محمد ممثلة فى الرحمة والمودة والألفة والإيثار والعطف ، لا يهيئ لصاحبه أن يضـع يده على مفتاح هذه الشخصية الفذة فى حقيقتها البعيدة ، هناك فى أعمق الأعماق وأبعد الأغوار .

إنسانية محمد لا توزن فى رأيى بذلك الميزان الذى يقام لـكل رجل يمكن أن تجتمع فيه تلك الصفات ، اتضـح بعد ذلك فى مواجهة اسمه كلمة « إنسان » ... وإنمـا توزن الإنسانية فى هذا العظيم بميزان اللحظة النادرة من لحظات حياته ، حين يقف وحده متفرداً فى مجال يعز فيه التفرد على كل شـــبيه وكل نظير . وما أكثر اللحظات النادرة فى حياة محمد الإنسان !

أنا أريد أن أنظر إلى عبقرية الإنسانية فى شخصية الرسول من خلال منظار آخر ؛ منظار يحدد الزوايا التى تفترق فى المشهد الإنسانى عن نظائرها فيما تعارف عليه الناس .. إذا قلنا إن محمداً إنسان لأنه رحيم فما أكثر الرحماء ، وإذا قلنا إنه إنسان لأنه وفى فمـا أكثر الأوفياء ، وقل مثل ذلك فى سماحة الطبع والمودة والألفة والإيثار والعطف ؛ فما أكثر ما كان يملك أصحابه من كل هذه الفضائل والسمات ... ولـكن محمداً كان يفترق عنهم جميعاً فى هـذا المجال ؛ مجال المفاضلة بين « الإنسان » فى صفاته العليا التى تقررها موازين القيم والأوضاع ، وبين « الإنسان العظيم » فى صـفاته المثلى التى يعجز عن تقريرها موازين القيم والأوضاع !

محمد الإنسان النادر لا يوزن إلا بميزان يبحث عن الندرة الخلقية التى تضمه وحده فى كفة ، وتضع فى الـكفة الأخرى ما شاء لها أن تضع من الناس ... ولن يتهيأ للباحثين أن ينفذوا إلى أغوار حقيقته الإنسـانية ، إلا إذا وقفوا طويلا أمام تلك المشاهد التى تعرض لهم نماذج من حياة ذلك القلب العظيم ؛ نماذج لا تتعدد منها الصور ولا تتكرر الألوان .

سأنظر إذاً إلى محمد الإنسان على ضـوء اللحظة النادرة من لحظات حياته ؛ تلك التى قلت عنها إنه يقف فيها متفرداً حين يعز التفرد على كل شبيه وكل نظير . لحظات « الضعف الإنسانى » فى حياة الرسول هى وحدها دون غيرها التى تهدى السالـكين إلى معالم الطريق ؛ طريق الوصول إلى حقيقته الإنسانية ... وإنه اضعف الأقوياء والقادرين حين يشرفون على الدنيا من أعلى قمة من قمم الأخلاق ، ليخفضوا للناس جناح الضعف من الرحمة .

هذا « الضعف الإنسانى » فى حياة محمد نابع من كونه إنساناً عظيما قبل أن يكون نبياً عظيما يحمل مشعل الهداية إلى

جيل من بعده أجيال... إن الرحمة فى موضعها أمر لا غرابة فيه؛ ولكن الرحمة فى غير موضعها أمر تكتنفه الغرابة من كل نواحيه. وهكذا كان محمد: فهو فى موقف الرحمة حيث تطلب الرحمة «رجل عظيم» ولكنه فى موقف الرحمة حيث لا ينتظرها أحد «إنسان عظيم». وهذه هى اللحظة النادرة التى لا يشاركه فيها أحد من الناس، لحظة «الضعف الإنسانى» المنبعث من غلبة الإنسانية على طبيعته وتغلغلها فى كل خليقة من خلائقه! وهي التى يسميها الباحثون رحمة دون أن يفرقوا بينها وبين الرحمة التى يقدم عليها غير العظيم أو يقدم عليها العظيم وهو غير إنسان.

يقول الأستاذ العقاد فى معرض الحديث من إنسانية محمد:

«النبى لا يكون رجلا عظيما وكفى. بل لا بد أن يكون إنساناً عظيما فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة التى تعم الرجولة والأنوثة والأقوياء والضعفاء، وتهيؤه للفهم عن كل جانب من جوانب بنى آدم. فيكون عارفاً بها وإن لم يكن متصفاً بها، قادراً على علاجها وإن لم يكن ممرضاً لأدوائها، شاملا لها بعطفه وإن كان ينكرها بفكره وروحه؛ لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة، وأخبر بسعة آفاق الدنيا التى تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء؛ لأنه يملك مثلها آفاقاً كآفاقها، هى آفاق الروح».

هذه الكلمات التى يسوقها الأستاذ العقاد عن محمد الإنسان تنطبق كل الانطباق على «الرجل العظيم» لا على «الإنسان العظيم»... لأن الرجل الذى يشمل الناس بعطفه، ثم يفسر هذا العطف على أنه أكبر من أن يلاقى الأمور لقاء الأنداد وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة؛ هذا الرجل إذا وضع فى الميزان صاحب طبيعة خلقية تنبع فيها الرحمة من منابع العظمة النفسية تلك التى تنظر إلى كل شيء نظرة القمم إلى السفوح أو نظرة الكبير إلى الصغير... وفرق بين رحمة يفرضها على صاحبها التعاظم والكبرياء، ورحمة يفرضها التواضع الموصول الروابط بالإنسانية فى أوسع آفاقها، وأرفع مزاياها.

أما قول الأستاذ العقاد بأن محمداً لا بد أن يكون إنساناً عظيما لأنه نبى عظيم، فهو فى رأيى لا يثبت ولا يؤكد إنسانية محمد فى كثير ولا قليل، لأن محمداً كان إنساناً عظيما بأدق معانى الكلمة قبل أن يبعث رسولا إلى الناس، والدليل على ذلك من تاريخ حياته مهيأ ميسور لكل من يلتمس الدليل... وذلك أمر لا ريب فيه ولا جدال!

بعد هذا نعود إلى المجال الذى يجب أن يبحث فى رحابه عن محمد الإنسان، مجال اللحظة النادرة من لحظات «الضعف الإنسانى» فى حياته! هناك حيث تبدو الرحمة فى غير موضعها لترفع الغطاء عن حقيقة هذا الإنسان العظيم:

مات عبد الله بن أبىّ، زعيم المنافقين فى عهد الرسول، ورأس الفتنة التى كانت تنشر سمومها فى صفوف المسلمين، عبد الله بن أبى الذى لم يسلم محمد من كيده وشره ولسانه، عبد الله بن أبى الذى نزل فيه وفيمن على شاكلته حكم السماء: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم)...

مات هذا المنافق فصلى عليه محمد بعد موته، ثم تخلى لأهله عن قميصه ليكفنوه فيه! ثم يقول لعمر حين يعتب عليه عتاباً بلغ حد التعنيف والإنكار: «أخر عنى يا عمر، لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له زدت»! ... ثم يقول لمن يسأله لم دفعت إليه بقميصك وهو كافر: «إن قميصى لن يغنى عنه من الله شيئاً، وإننى أؤمل من الله أن يدخل فى الإسلام كثيراً بهذا السبب»! ... ولم يلبث محمد إلا قليلاً حتى سمع رأى السماء: (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره)!

هذا هو محمد الإنسان متفرداً فى مجاله، متوحداً فى فضائله وأعماله... لقد كان قادراً على قتل عبد الله بن أبى، ولكنه لم يفعل، وكان قادراً على أن يشيعه باللعنات ولكنه لم يفعل، لأنه إنسان... إنسان يتسع قلبه للدنيا بما فيها: من خير وشر، من فضيلة ورذيلة، من إيمان ونفاق، من وفاء وتنكر للوفاء. ويتسع للدنيا بمن فيها: سواء أكان فيها عمر بن الخطاب، أم عبد الله بن أبى، أكان فيها على زوج ابنته فاطمة، أم هبار بن الأسود قاتل ابنته زينب!... هذه هى اللحظة التى تتجلى فيها الندرة فى الطبيعة الخلقية؛ «لحظة الضعف الإنسانى» الذى يدفع

الرسول الكريم إلى لون فذ من الصفح والرحمة ؛ هناك حيث يأتي الصفح والرحمة على غير ترقب وانتظار ... إن الرحمة كما سبق أن قلت حين تأتي في موضعها تكون سمة من سمات « الرجل العظيم » ، ولكنها حين تأتي في غير موضعها كما حدث هنا تكون سمة من سمات « الإنسان العظيم » ، وفي هذا النطاق تجد محمداً ولا تجد سواه !

ويدفعنا ذكر هبار بن الأسود إلى أن نورد هنا شيئاً من قصته ، فيها لحظة أخرى من لحظات التفرد في عبقرية محمد الإنسانية ... كانت زينب بنت الرسول في طريقها من مكة إلى المدينة ، تلبي دعاء الشوق الأبوي المنبعث من قلب أبيها العظيم ، وكان يرافقها نفر من أهله وصحبه ليكونوا لها ملاذاً من كيد الكائدين وعدوان المعتدين ، ولكن قطاع الطريق ممن خرجوا على طاعة الرسول وكلمة السماء قد اعترضوا طريق القافلة المؤمنة والركب الآمن ، لتندى رمال الصحراء بعد قليل بأطهر دم سال على رمال الصحراء . لقد كان دم زينب أراقته رمية رمح من يد الجارم الآثم هبار بن الأسود ؛ وحين يبلغ الأمر محمداً الوالد يتلقاه كما يتلقى الآباء مصارع الأبناء ؛ بالحزن العميق والأسى الدفين ، واللوعة التي تهز في القلب الكبير مكامن الألم والعذاب ! ...

ويهدر محمد الزعيم دم هبار بأي مكان وجد ، وبأي بلد نزل ، وبأي حي من أحياء العرب أو العجم حل متخفياً أو سافراً بغير قناع . وينطلق أصحاب محمد في إثر ابن الأسود لا يتركون فجاً من فجاج الصحراء ، ولا بقعة من بقاع الأرض ، ولكنهم يعودون صفر الأيدي من ذلك المعتدي الأثيم ... ويعود الوالد المفجوع إلى حزنه وأساه !

وفي يوم من الأيام التي لا تنسى في حياة الرسول يقتحم مجلسه رجل يخفي وجهه تحت لثامه ؛ رجل لا يملك عينيه من الدمع ، ولا قلبه من الوجل ، ولا لسانه من طلب الصفح والمغفرة وينظر الإنسان العظيم إلى هذا الذي يستجير به ويفزع إليه فيجده قاتل ابنته هبار بن الأسود ، يدفع إليه برمحه ليصنع به ما صنع بزينب جزاء ما اقترفت يداه ! ... وهنا يختفي محمد الوالد المفجوع في أعز ما يملك من دنياه ، ولا يبقى إلا محمد « الإنسان العظيم » في أكرم ذروة من ذرى « الضعف الإنساني » ؛ هناك حيث يخفض لهبار جناح الضعف من الرحمة ... وهناك حيث يخرج هبار وقد غفر له ... وهناك حيث يقف محمد متفرداً في مجال الندرة الخلقية حين يعز التفرد على كل شبيه وكل نظير !

ولحظة ثالثة وما أكثرها من لحظات ... لحظة قد يمر بها المجالي فلا يقفون أمامها طويلاً ليتأملوها تأمل المترفين في البحث عن جوهر النفوس ومعدن القلوب ، حين يصهرها وهج الرحمة في بوتقة « الضعف الإنساني » ؛ ضعف الأقوياء والقادرين !

طفل يموت ... وما أكثر ما يموت الأطفال وغير الأطفال فيتجلد الآباء أمام شبح الموت ووقع المصيبة ؛ لا يترقرق في مآقيهم دمع ، ولا يعصف بقلوبهم حزن ، ولا يذهب بصبرهم وقدة شعور ملتاع ، وقد يكون المفجوعون أناساً لا حظ لهم من مقارعة الخطوب ولقاء الشدائد ومغالبة الأهوال ! ولكن موت إبراهيم يهز في نفس محمد كوامن الشجن ، ويهز في عيني محمد عصي الدموع ، محمد الذي لم تهزه الدنيا بكل ما ادخرته له من محن يرفض منها الصبر وتخور منها العزيمة ، محمد الذي توكأت على كتفيه عوادي الزمن يسير وراء إبراهيم متوكئاً على كتفي عبد الرحمن بن عوف !

ومعذور ابن عوف حين يستكثر البكاء على الرسول وينكر البكاء على الرسول ؛ لقد كان ينظر إلى « الرجل العظيم » الذي بكى ، ناسياً أن الذي بكى هو « الإنسان العظيم » ! ... ومعذور ابن عوف إذ نظر إلى محمد فوجده يبكي على غير ترقب وانتظار ؛ لقد كان عهده به جلداً أمام المصائب ، قهاراً للخطوب ، ولكنه نسي لحظات « الضعف الإنساني » التي تكشف عن صدق الإنسانية حين تنتفض من جيشان العاطفة أمام أصعب الأمور وأيسر الأمور

لحظات « الضعف الإنساني » هي وحدها الميزان الذي توزن به إنسانية محمد دون غيرها من الموازين ، وتوزن به إنسانية محمد دون غيره من الناس ... وهي هنا لحظات ثلاث ، وإنها لقليل من كثير ، وما أكثرها على قلتها في حساب الشعور والوجدان .

أنور المعداوي

حداء الركبان

للأستاذ محمد عبد الغني حسن



مَنْ هؤلاء الصامتون ؟ تكلموا !
مَن هـؤلاء المحجمون ؟ تقدَّموا ! !

ما بالكم تُقضَى الأمورُ بغيركم   ويكونُ دونكم القضاء ويُبرم ؟
تتكلم الأسلاتُ فوق رءوسكم   وتهيج حولكم الوغى وتُدمدم
وتكاد كفُّ الطامعين تصيبكم   وتنال ماترجو المطامع منكمو
الفاتحون الأرضَ بعد محمدٍ   أضحوا وهم فى كل أرض مغنم

مَن هؤلاء الحائرون . كأنما   طال الطريق بهم فلم يتقدموا
فعلى غواربهم ضَنًى وتهدُّمٌ   وعلى ملامحهم أسى وتجهُّمُ
وكأنهم من سُوء ما صنعت بهم   أقدارُهم فى الكون لم يتبسموا ! .
صبراً إذا مشت الرياح بركبكم   وأناخ كلكلَه الزمانُ عليكمو
صبراً إذا الحادى استبان سبيلَه
فإذا الطريق على الرواحل مُظلم
صبراً إذا انبهر الحداةُ فلاترى   فى الركب من يشدو ومن يترنم
هذى سبيلٌ سار فيها قبلَكم   مترسم فى إثرِهِ مترسم
ذَلبتْ وتغلبُ كلَّ من سئم السُّرى
ويكاد يغلبها الذى لا يسأمُ

ما هذه البيداء إلا أنها   تِيه يضل به الدليل المقدمُ
ما هذه الصحراء إلا أنها   ساحٌ يخُور بها الكمىُّ المُعلَمُ
ما هذه الموماة إلا أنها   ليل تحارُ به النجوم فتُعتم
ما هذه الفيفاء إلا أنها   بحرٌ تحيط بشاطئيه جهنم
هى قبر كلِّ مجاهد لم يَطوِهِ   فى خمسة الأشبار كونٌ أعظَمُ
أكلت لحومَ الخالدين ولم تزل   يعتادها النَّهِم القديم فتنهمُ
بالأمس كان وقودها فى حرِّها   جيشٌ من الشِّرك الأثيم عرمرم
فإذا دعاه الجاهلية خافت   وإذا ثَراء الجاهلية مُعدم
وإذا الطواغيت التى قد أشركوا   بالله فوق رءوسهم تتحطم

مَن هؤلاء النائمون كأنما   لم يهدِ نهجَهُمُ الكتابُ المحكم
يبدو العياء من الليالى فوقهم   ويُرى الغبارُ من السنين عليهمُو
فكأنهم أنضاء ركبٍ لم يَبِنْ   للواحة الخضراء فيهم مَعْلَمُ
تتخبط الأحداث بين صفوفهم   وتموجُ بالخطب الجسيم وتُقحَمُ
أعياهمو خَبَبُ الطريق فوقَّفوا
وأخافهم فَزَعُ الطريق فأحجموا
ما بالهم لم يُجْدِ فى أسقامهم   طبٌّ ولم ينفع لديهم مرهم
عجباً أتبرأ علةٌ فى أمة   ويصحُّ جسم والطبيبُ السقيم ؟!

يا أيها الركبان إن سبيلكم   للمجد والعلياء أن تتقدموا
لا يُيئِسنَّكم الطريقُ إذا بدا   وعليه أشواك وفيه تجشُّمُ
يكفى الصياحُ فما الحياة عبارةٌ   جوفاء فارغةٌ يرددها الفمُ
الحق تحميه الصوارم والقنا   والعدل تحفظه الضحايا والدمُ
والقوة الغلباء ليس يردها   إلا القوىُّ الغالب المتغلب

محمد عبد الغني حسن

الحديث الشريف

هل تنقيحه ممكن؟

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى



يموج العالم الغربى اليوم بمتلاطم من المذاهب والنظريات والحقائق التى بلبلته حين تكاثرت عليه، فصار لا يدرى ما يأخذ، أو ما يدع.

والعالم الإسلامى عرضة لتلك الأمواج تتوافد عليه فتحدث فيه بعض ما أحدثت فى عالم الغرب من اضطراب فى الفكر والاعتقاد، وذلك رغم ما يملكه المسلمون من معايير وثيقة للحق والباطل تتجلى فى كتاب الله وسنة الرسول.

ولعل من بوادر البلبلة الوافدة ما يبدو لبعض الناس فى بعض الأحاديث الشريفة من مخالفة للعقل يقترح من أجلها تنقيح كتب الحديث القديمة أو تنقيح الأحاديث نفسها فى كتب جديدة.

وتمحيص الحديث لا يمكن من الناحية النظرية إلا عن طريقين: تمحيص المتن أو تمحيص السند. فأما تمحيص الأسانيد فقد قام به أئمة الحديث على صورة لم تدع زيادة لمستزيد. ونخل الأسانيد فوق ذلك أمر غير ممكن. وأما نقد متون الأحاديث فلا يزيد على أن يكون تحكيما للرأى فى الدين بحيث يصبح الدين رأيا ويصبح الرأى هو الدين.

إن القدماء كانوا على حق حين حكموا أن الطريق الوحيد المأمون فى تصفية الأحاديث هو طريق تمحيص السند، لأنه بعد أن قامت الحجة القاطعة على رسالة الرسول صلوات الله عليه، وأنه لا ينطق عن الهوى فى كل ما بلغه الناس عن الله، لم يبق لتمييز الحق من الباطل إلا أن نثبت القول عن الرسول. وتمحيص الأسانيد المتصلة إلى الرسول هو الطريق البديهى لهذا الإثبات.

فمن آيات الله الباهرة فى حفظ هذا الدين أن وفق علماء المسلمين للقيام بتلك المهمة الكبرى قبل أن يفوت وقت إمكان القيام بها فلو تأخرت إلى ما بعد تلك العصور التى تمت فيها لأصبح القيام بها مستحيلا، إذ لو وجد العلماء الراغبون فى بذل الجهد القادرون على التمحيص، لما وجد ما يفحص أو يمحص بعد موت جميع الشهود.

فمن فضل الله علينا وعلى الناس جميعا أن كان الدين وعلومه شغل العلماء الشاغل عصوراً طويلة حتى تم حفظ اللغة، وحفظ القرآن، وحفظ الحديث، وإلا أصاب الإسلام ما أصاب غيره من التحريف والتبديل والتضييع.

ولست أدرى كيف يمكن إذا كان الحديث ثابتا عن الرسول أن يمتد إليه عقل، مهما قدر، بتنقيح أو تعديل! لست أدرى كيف يمكن أن يجوز عند العقل أن قولا ثابتا عن الرسول الذى قطع العقل برسالته عن الله يصح أن يكون محل بحث غير بحث يرمى إلى استنباط المعنى منه، لا إلى تصحيح أو تنقيح شىء فيه. إن الدين قد جاء الانسانية بكثير مما لم تكن تعرف، وكثير مما لا يمكن أن تعرف إلا عن طريقه؛ وكل أخبار الغيب لا يمكن أن نعرف إلا عن طريقه. والمسألة ليست مسألة ماذا نفهم من الدين، أو ماذا نعقل، أو ماذا يتفق مع ما نعرف أو نعلم عن غير طريقه، ولكن المسألة هى أمر الواقع الذى كان والذى بلغه الرسول للناس عن الله سبحانه. فاذا ثبت أن أمراً قد وقع أو قولا قد صدر عن الرسول وجب قبول هذا الواقع وذاك القول مهما بدا للعقل غريباً أو عجيباً أو غير مفهوم.

إن الدين صادر عن خالق الخلق، وقد تناول جميع الفطرة ماضيها وحاضرها ومستقبلها: بالإجمال فيما اقتضت الحكمة الإلهية إجماله، وبالتفصيل فيما اقتضت تفصيله. والعقل الذى يمكن أن يحيط بالفطرة لم يخلقه الله بعد، وهو على أى حال عقل المجموع لا عقل الفرد والعلم الذى يتسع حتى لا يند عنه شىء من الفطرة لم يوجد، ولن يوجد أبدا. فسيظل الإنسان يعلم ويزداد علما من غير أن يصل إلى نهاية العلم.

وإذا كان الأمر كذلك فهل من المعقول أن يتطلع الإنسان إلى فهم كل شىء فى الدين كأن ليس فى دين الله ما يسمو عن عقل الإنسان؟ وإذا كان فى الدين ما يسمو عن عقل الإنسان ويزيد عن علمه، فهل من المعقول أن يحكم الإنسان عقله وعلمه فى الدين، فلا يقبل من الحديث إلا ما طابق ذلك العقل على محدوديته، وذلك العلم على قلته؟ ألا يكون ذلك غروراً يضل

الإنسان به عن الله ، ويصبح به إلهه هواه ؟

ما هو القياس الذى يمكن أن يقيس به الإنسان متون الحديث ومعانيها ليقبل منها ما يوافقه ، ويرفض أو ينقح منها ما يخالفه حتى يزول الخلف ؟ إن الحق القاطع لا يختلف . ذلك أمر معروف مقطوع به . فهل يمكن أن يتناقض نص قاطع وأمر واقع عرفه الإنسان بالعلم المستقل عن الدين ، كالعلم الطبيعى مثلا ؟ إن هذا غير ممكن ؛ فالدين من عند خالق الفطرة ، واليقينى من العلم الطبيعى هو جزء من الفطرة ، بمعنى أنه وصف حقيق صادق لجزء منها ، والفطرة متجانسة متساندة فلا يمكن أن أن يناقض بعضها بعضا . وإذن فلا يمكن أن يناقض علم دينا أو دين علما إذا كان العلم صحيحا وإذا كان الدين من عند الله . لكن الدين بحكم تناوله جميع الفطرة يجمل القول أو يبهمه فيما لا يتعلق بضرورى لسعادة الإنسان الآن ، وفيما ضاق عنه علمه الحاضر أو علمه وقت أن نزل القرآن ؛ فيفهم الإنسان من القول المجمل أو النص المبهم بقدر عقله وعلمه ؛ بل لعله لا إجمال ولا إبهام هناك إلا بقدر ما يكون فى العبارات الكلية عند من لا يعرف جزئياتها ، فهى تبدو مجملة أو مبهمة لكثرة ما فيها من المعنى الذى استغلق على الإنسان ؛ حتى إذا ازداد علمه باطراد تقدمه ، فهم من النص ما لم يكن يفهمه ، واطلع منه على دنيا من الحقائق جديدة يتجدد بها له وللانسانية الحجج عصراً بعد عصر : أن الإسلام دين الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن القرآن كتاب الله ، وأن ما ثبت عن الرسول لا يجوز أن ينقحه ، وإن وجب أن يتفهمه ، الإنسان .

سيقال طبعاً إن الثابت عن الرسول صلوات الله عليه مختلف فى درجة الثبوت ، فالمتواتر من الحديث قليل أو أقل من القليل ، لا يكاد يجاوز أو يبلغ أصابع اليدين عداً . وهذا لا اختلاف فى قبوله ولا فى أنه فوق التنقيح . والثابت غير المتواتر هو الصحيح على تفاوت فى درجة الصحة ، وهذا لا يفيد إلا الظن ، أى ترجيح أنه من قول الرسول على تفاوت فى درجة الرجحان ؛ وهذا هو الذى يصح أن يكون عرضة للتنقيح عند اللزوم .

إنى أقول أولا إن احتياط علماء الحديث رضوان الله عليهم من الناحية العقلية المنطقية الصرفة ، هو الذى جعلهم يضيقون دائرة المتواتر ذلك التضييق . وإلا فكثير من الحديث يلتحق بالمتواتر لتعدد طرقه وسلامة أسانيده . ولئن لم يتواتر هذا الكثير من ناحية اللفظ فهو متواتر أو يكاد من ناحية المعنى . ولو دقق علماء التاريخ فى ثبوت التاريخ تدقيق علماء الحديث فى ثبوت الحديث لما كاد يثبت من التاريخ شىء . فمسلك علماء الحديث فى نقد الأسانيد كان غاية فى التشديد ؛ كانوا يضعفون الحديث إذا عرف عن أحد رواته سهوة ، أو أحصى عليه هفوة يرونها تخل بالكرامة . وكانوا ينبذون الحديث إذا عرف عن أحد رواته أنه كذب ولو مرة . وهذا تشديد كبير لأن الذى يكذب مرة ليس معناه أنه يكذب كل مرة ، أو أن الكذب له عادة . والذى يكذب على الناس ليس بضرورى أن يكذب على الرسول الذى توعد الكاذب عليه بالنار . لذلك لست أشك فى أن من بين ما رفضه علماء الحديث صحيح غير قليل ، فينبغى أن يكون ما قبلوه بالغاً فى الصحة كل مبلغ ، جديراً أن تتلقاه العقول بالطمأنينة والقبول .

فالرجحان هو أقل ما يمكن أن يوصف به ما صححه أولئك العلماء الأعلام المدققون . أى أن ما وصفوه بالظنى والراجح هو فى الواقع فوق ذلك بكثير ، ولكنهم وصفوه بأقل ما يمكن أن يوصف به ، لأن العقل لا يقطع بغير هذا . أى أن الأحاديث الصحيحة عند العقل هى قطعية الرجحان . وما كان قطعى الرجحان هكذا فى الثبوت عن الرسول فأى حكمة يا ترى هناك فى القول بتنقيحه ؟ أفمن الممكن إنزاله عن مرتبة الراجح مع أن رجحانه مقطوع به ؟ أم من الممكن إعلاؤه عن مرتبة الراجح إلى مرتبة اليقينى ؟ ليس هذا ولا ذاك ممكنا عند العقل اليوم ، وإذن فلا محل هناك للقول بتنقيح صحيح حديث رسول الله صلوات الله عليه .

ويجب ألا يغرب عن البال ، أن الأحاديث الصحيحة وإن وصفت بأنها راجحة الثبوت عن النبى عليه الصلاة والسلام فان الإجماع منعقد على العمل بها فى الدين : أجمع على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم ، وأجمع على ذلك العلماء عصراً بعد عصر إلى عصرنا هذا . فمن يحدث نفسه بترك حديث صحيح لمجرد أنه لا يفهمه أو أنه يستغرب معناه يعرض نفسه للخروج على إجماع المسلمين ويعرضها الخروج على الإجماع لما فى ذلك من خطر حقيق عليه ، لا عند الناس ولكن عند الله :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » . فالإجماع واجب الاتباع بالكتاب بهذه الآية على الأقل ، والسنة بعدة أحاديث .

العلوم الدينية

بين القرآن وعلماء الإسلام

للأستاذ عطية الشيخ
المفتش بالمعارف



مصادر الإسلام أربعة، هي القرآن والسنة والإجماع والقياس، ومن بين هذه الأربعة ثلاثة خلافية بين الفرق والمذاهب الإسلامية، تفاصيلها في علم الكلام لمن أراد البحث، أما المصدر المتفق على نصه فهو القرآن الكريم، والاختلاف في التفسير لا يضر، إذ القرآن الكريم كنز لا تفنى غرائبه، ولا تنتهي عجائبه. وكلما تقدم العلم، وارتقى الفكر، وانفسح مدى المعارف الإنسانية، وزادت تجارب الناس ومشكلاتهم، كلما حدث هذا، وضح ما في القرآن من إعجاز، وتبين للعقلاء أنه كلام رب العالمين «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله».

على أن هناك تفسيراً للقرآن لا يقبل الشك، وهو سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كانت أخلاقه القرآن، كما حدثت بذلك الصديقة رضى الله عنها. ولهذه السيرة تلاميذ، أحاطوا بها ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها، وهؤلاء التلاميذ المخلصون، هم نجوم الأمة المنيرة صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، انعكست عليهم أضواء شمس القرآن، بعد غروب بدر نبيه، واسترشدت بهم الأمة بعد فقد الصادق الأمين، فهدوها إلى صراط مستقيم، ورفعوا لواء الإسلام في كل حزن وسهل، وطافوا به كل مطرح ونشروه في كل واد، عاملين أنه سلوك يهدى لا جدل يردد، وقلب يصفى لا لسان يلوك، وسنة تتبع لا دروس تتلى، فأعجبت بسلوكهم الشعوب المنحلة، وشغفت بطريقتهم الأرواح المجهدة، واقتدى بهديهم المتعبون والمثقلون، ودخل أهل الدنيا في دين الله أفواجا، ولم يمض إلا عشرون عاما حتى كانت العربية لسان كل سنخ وجنس، والشريعة السمحة قانون كل صقع ودولة، والمسلمون مثلا أعلى لكل متعلم ومسترشد.

ثم أتخم الإسلام بكثرة ما حمل من أوشاب الأمم، ومختلف الحضارات، وما أثر فيه من مشاكل العلوم القديمة، والنحل المختلفة، وما دسه فيه أعداؤه من رجال الأديان الأخرى التي خرت أمام سطوته، وعنت لعظمته، فخلف من المسلمين خلف بعد أن وقفت فتوحه، متأثرين بكل ما ذكر، وجعلوا من عقيدة الفطرة مشاكل ذرية، ومن غذاء الروح عقداً فلسفية، ووضعوا مصطلحات، واخترعوا علوماً، وتركوا ميدان الحسام وجاهدوا بأسلات اللسان، وهجروا صهوات الخيل، إلى مذاكرات الليل، وطرحوا خصام الكافرين، إلى جدال غيرهم من المسلمين، فأفسدوا من الإسلام مذاقه، وعكروا صفوه، وقسموا الأمة طرائق، وقطعوها حزائق، وكانوا أنكى على الإسلام ممن خصمه بحد الحسام.

ورضى المتجدون على الإسلام والطارئون عليه من ملوك الأعاجم والترك، بعد أن دالت دولة العرب، بفهم الإسلام على هذا الوضع، لمشابهة العلوم الإسلامية المبتدعة، لما ألفوه من علوم الأديان الأخرى، وثنية وسماوية، فعظموا هؤلاء المبتدعين، ورفعوا شأنهم، ورأوا في تعظيمهم تعظيم الإسلام نفسه. وكيف لا يفعلون هذا، وقد فعله من حولهم من ملوك الروم للقساوسة والرهبان، ومن أعيان اليهود للأحبار، ومن ملوك الهند للكهان؟ أو لعل هؤلاء الحكام الجدد رأوا في هذا السلوك خدمة لعروشهم، بصرف الناس عن خدمة الدين بما خدمه به فقهاؤه الأوائل من جزيرة العرب، إذ أن فهم الإسلام هذا الفهم الأول، يعكر عليهم ما أخذ يحيط بهم من ترف ونعيم ولهو واستماع، ومن كان كذلك يعنيه أن يفصل بين ما لقيصر وما لله

على أن كل إنسان في ذات نفسه في قبول ما يقبل أو رفض ما يرفض، فإن ذلك متعلق بقلبه وبعمله هو. هو أمر بينه وبين الله، بل ونرجى له النجاة ما صدق النية لله في ذلك. لكنه إذا بدأ يدعو غيره إلى ما يشبه أن يكون خروجا على إجماع المسلمين، فإنه عندئذ يعرض نفسه لأخطار لا يقدم على التعرض لها عاقل من الناس.

محمد أحمد الغمراوى

وأن يجمل الدين في المساجد والـكتب ، والملك المضود في الدنيا وزهرتها ، وإلا لقام له من يقول : « لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناك بالسيف » ، ومن يقول : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، ومن يطبق قول أبي بكر : « أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » ومن يقول : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ، إنما أهلك بني إسرائيل أنهم كانوا يقيمون الحد على ضعفائهم دون أقويائهم » .

أقول منذ فهم الإسلام هذا الفهم ، ووضع هذا الوضع ، وجمل علوما جدلية ونظريات علمية ، وقواعد جافة ، أخذ بناؤه ينقض حجراً حجراً ، وعموده يميد شبراً شبراً ، وأرضه تنتقص رقعة رقعة ، ووحدته تتجزأ فرقة فرقة ، حتى لم يبق منه إلا الذماء . أفلم يأن للبقية الباقية من المسلمين ، الحراص على استرداد مجدهم ، والحفاظ على ما بقي لهم ، أن يعيدوا للاسلام جدته ، ويفروا إلى القرآن ، ويسعهم من الدين ما وسع الصحابة رضوان الله عليهم ، ويتركوا كل هذه التركة الثقيلة التي ما فتئوا يسمونها علوم الدين ؛ والدين منها برىء ، ويضيعون وقتهم في مدارسها ويبنون المعاهد والمدارس لها . ثم لا يكون منهم مثل خالد أو عمرو أو عمر ، ولا ينبغ فيهم مثل من نبغ من الأميين ؟ ! لست أول من نادى بذلك الرأي ، بل قد سبقني إليه الغزالي حجة الإسلام ، وبرهن بما لا يقبل الشك على أن ما يسميه الناس علوم الإسلام ليست من الدين في شيء ، وأن معرفتها لا تقرب إلى الله قيد شعرة ، وأن عامة المسلمين أخلص عقيدة وأصفى قلباً وأقرب إلى الله من علماء هذه العلوم . وفي الأثر ما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى بعض أصحابه عن الجدال في الدين ، والتنطع فيه ، والخوض في النظريات التي أولها كلام وآخرها خصام ، والسؤال عما لم يرد .

أقول إن الأمة أحوج إلى فهم علوم الدنيا من كيمياء وطبيعة ورياضة وطب وهندسة ... الخ ، لأنها علوم تعين على الحياة ، وكسب الرزق ، والقوة وفهم قدرة الله ، وهو ما أمر الدين به ، بل هذه العلوم مأمور بالبحث فيها بنص القرآن ، وما من علم حديث إلا له آيات تحض على البحث فيه ، مع ذكر شيء من مبادئه الأولى ، حتى وقر في ذهن المسلمين منذ القدم أن القرآن الكريم حوى كل علم يمكن أن يبحث فيه السلف أو الخلف ، وفسروا قوله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » هذا التفسير . ولولا الإطالة لأحصينا في هذا المقال الآيات التي تحض وتأمر بالتعمق في العلوم الكونية أما ما يسمونه بالعلوم الدينية ، بحسب الوضع الذي صارت إليه ، فليس لها سلطان في الكتاب العزيز أو ماضي السلف الصالح ، ولم يفد منها الإسلام إلا الضعف والتفرق والضياع . فياليت الذين أهملوا مؤلفات ابن الهيثم ، وزيجات الخيام ، وقانون ابن سينا ، وبحوث بني موسى بن شاكر ، ومسائل جبر والخوارزمي ، ومستحدثات البيروني . يا ليت هؤلاء الذين ضيعوا هذا المجد وحاربوه وجروا وراء الفرق بين المعجزة والكرامة ، والواجب والمندوب ، والاجماع والقياس ، والحيض والاستحاضة . يا ليتهم علموا أن العلوم الأولى أقرب إلى الله من الثانية ، وأدخل في الاسلام منها ؛ إذاً لما أصبح المسلمون عبيداً للأوربيين الذين وقعوا على ذخائر العرب فانفسح أفقهم العقلي ، ووصلوا إلى هذه المخترعات التي أثاروا بها الأرض وعمروها ، وحددوا الأفلاك وفحصوها ، وحللوا العناصر وركبوها ، فدانت لهم الأمم ، وعنت لهم الشعوب .

القرآن الكريم وهو الأصل المتفق عليه للاسلام ، والمصدر القطعي الثبوت والدلالة ، ما تعرض للبحوث التي سموها علوم الاسلام إلا لماماً ، حتى إن الصلاة وهي عماد الدين لم تتبين فيه أوقاتها وطريقتها ، لا استهانة بها ولكن لأن أهم أركانها صفاء القلوب ، وخشية المعبود ، وأما أقوالها وأفعالها فتوقيفية يسيرة التناول على الذكي والغبي . وكذلك الزكاة ، والصيام ، والحج ، وهي قواعد الاسلام ، يشير إليها القرآن الكريم إشارات خفيفة تاركا كل تفصيل وتوضيح للروح لا للعقل ، وللذمة والضمير ، لا للحدود والأقيسة .

أما القصص التهذيبي الذي أهمل المسلمون طرائقه في التعليم الخلقي فهو أكثر ما في القرآن . وأما الإيمان بالغيب والإسلام لله فهو لباب التنزيل . وأما البحث في النفوس وخلقها ، والأجنة ونموها ، والأمم وتاريخها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها ، والكون وما يصير إليه ، والرزق وما يحصل به ، والأمم وكيف تحيا ولم تموت ، وحسبان الشمس والقمر ،

طبيب أديب

للأستاذ عباس خضر



عاش هذا الرجل ببغداد في القرن السادس الهجرى ، في الوقت الذى كان قد مضت فيه حقبة طويلة على اكتمال الحركة العلمية في العصر العباسى ونضج ثمارها ، وانتقلت من مراحل النقل والترجمة والشرح والتلخيص والتمحيص ، إلى طور الإنتاج والاختراع والإنشاء . وكان هذا التقدم العلمي على عكس التدهور والاضطراب السياسيين ، أو قل إن الازدهار العلمى قد عمر أكثر من الازدهار السياسى .

ولا أسترسل في ذلك ، فلنعد إلى صاحبنا ، وهو أمين الدولة ابن التلميذ الطبيب الأديب . قالوا : إنه كان أوحد عصره في صناعة الطب ، وكان إلى ذلك أديباً ، له شعر جيد ورسائل بليغة . ولم يجذبنى ما رووا عنه من الشعر والنثر ومن البراعة في فنون العلاج الطبى ، بمقدار ما راعتنى صفات أخرى فيه ، يسمونها في عصرنا « واجب الطبيب الإنساني » وقد عرفه واجباً عملياً قبل أن يأتى زماننا فيردده كلاماً طلياً . .

كانت داره بجوار المدرسة النظامية في بغداد ، فكان يتفقد معلميها وطلبتها ، إذا مرض أحدهم نقله إلى داره وقام عليه في مرضه ، فإذا شفى أذن له في الانصراف ووهب له دينارين .

وعرض لبعض الأمراء النائين مرض عضال ، فقيل له ليس لك إلا ابن التلميذ وهو لا يقصد أحداً . فقال : أنا أتوجه إليه ، فلما وصل أنزله ومن معه في ضيافته ، وعنى بمعالجته ، فلما برئ الأمير وتوجه إلى بلاده أرسل إلى ابن التلميذ مع أحد التجار مالا كثيراً وهدايا ثمينة ، فامتنع من قبولها وقال : إن على يميناً ألا أقبل من أحد شيئاً . فقال التاجر : هذا مقدار كثير . قال : لما حلفت ما استثنيت . وأقام التاجر شهراً يراوده فلا يزداد إلا إباء . فقال له عند الوداع : ها أنا أسافر ولا أرجع إلى صاحبي ، وأتمتع بالمال فتتقلد منته وتفوتك منفعته ولا يعلم أحد أنك رددته . فقال : ألست أعلم في نفسى أنى لم أقبله ؟ فنفسى تشرف بذلك علم الناس أو جهلوا !

وقد اعتاد معاصرونا أن ينتسبوا إلى شرف المهنة ، ولكن ابن التلميذ كان الأمر عنده أبعد غوراً ، كانت أصوله في نفسه ، فقد درس الفلسفة ومزج الحقائق الخلقية بنفسه ودرس الطب مقروناً بالفلسفة المكونة للإنسان الجدير بلقب « الحكيم » فكل ما يعنيه هو شرف نفسه الذى يشترك فيه كل إنسان راق ، والذى ينبع منه « شرف المهنة » إن كان لا بد من هذه التسمية . ولعل اتصاف الأطباء بتلك الأصول الخلقية في ذلك الزمن واقتران دراستهم الطبية بالدراسة الفلسفية ، وإطلاق كلمة الحكمة على كل ذلك ، لعل ذلك هو الأصل الذى ينزع إليه إطلاق العامة لفظ « حكيم » على الطبيب .

وكان ابن التلميذ رئيس المستشفى العضدى ببغداد وقد فوض إليه الخليفة رياسة الطب فيها ، فكان من شأنه الإشراف على الأطباء وإقرارهم على مزاولة المهنة بعد اختبارهم ومعرفة ما عند

والقمر ، وما في الأرض والسماء من قوى وعبر ، فهى كل القرآن وهى موضوع العلم الحديث ، ومن يتبحرون فيها هم علماء الدين الذين يخشون الله ويخدمون الأمة ، ويرفعون شأن الملة .

علوم الإسلام ، هى الصناعة والزراعة والطب والهندسة وما اليها . وأما علوم الكلام والفقه والأصول وما جاراها ، فليست من الإسلام في شيء . وقد بلغت وما أنا إلا حريص على نهوض المسلمين ، والسلام على من اتبع الهدى .

عطية الشيخ
المفتش بالمعارف

كل منهم فيها ، وفى أحد مجالس الاختبار حضر شيخ له هيئة ووقار ، ولم يكن عنده من صناعة الطب إلا التظاهر بها ، وإن كان له دربة يسيرة بالمعالجة ، فلما انتهى السؤال إليه قال له أمين الدولة :

— ما السبب فى كون الشيخ لم يشارك الجماعة فيما يبحثون فيه حتى نعلم ما عنده من هذه الصناعة ؟

— يا سيدنا ، وهل شىء مما تكلموا فيه إلا وأنا أعلمه وقد سبق إلى فهمى أضعاف ذلك مرات كثيرة ! .

— فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة ؟

— يا سيدنا ، إذا صار الإنسان إلى هذه السن ما يليق به إلا أن يسأل كم من التلاميذ له ، ومن هو المتميز فيهم ، وأما المشايخ الذين قرأت عليهم فقد ماتوا من زمان طويل .

— يا شيخ ، هذا شىء قد جرت العادة به ولا يضر ذكره ومع هذا فما علينا ، أخبرنى أى شىء قرأته من الكتب الطبية ؟

— سبحان الله العظيم — صرنا إلى حد ما يسأل عنه الصبيان ! يا سيدنا ، لمثلى لا يقال إلا أى شىء صنفته فى صناعة الطب وكم لك فيها من الكتب والمقالات ، ولا بد أن أعرفك بنفسى .

ودنا إلى أمين الدولة وقال له فيما بينهما :

— إعلم أننى قد شخت وأنا أوسم بهذه الصناعة ، وما عندى منها إلا معرفة اصطلاحات مشهورة فى المداواة ، وعمرى كله أتكسب بها ، وعندى أولاد ، فسألتك بالله ألا تفضحنى بين هؤلاء الجماعة وألا تمنعنى التكسب لعيالى .

— لك ذلك ولكن على شريطة ، وهى أنك لا تهجم على مريض بما لا تعلمه ، ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل إلا لما قرب من الأمراض .

— هذا مذهبى مذ كنت .

ورفع أمين الدولة صوته والجماعة تسمع : يا شيخ اعذرنا فإننا ما كنا نعرفك والآن فقد عرفناك ...

ومن الطريف ما حدث بعد ذلك ، فقد التفت كبير الأطباء إلى أحدهم وقال له :

— على من تعلمت هذه الصناعة ؟

— يا سيدنا ، أنا من تلاميذ هذا الشيخ الذى قد عرفته وعنه أخذت صناعة الطب .

وكان أمين الدولة نصرانياً ، عاش فى تلك البيئة الإسلامية السمحة مكرماً مقدراً أكبر التقدير ، يحظى بهبات الخلفاء وعطفهم ، ويحل المنزلة التى تليق به فى نفوس معاصريه من الأشراف والشعراء ، ومما وجه إليه من الشعر ما كتب له الطغرائى يشكو ألماً فى ظهره :

يا سيدى والذى مودته عندى روح يحيا بها الجسد
من ألم الظهر أستغيث وهل يألم ظهر إليك يستند ؟

وقد حسده طبيب يهودى اسمه أبو البركات على منزلته لدى الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله ، فاحتال للدس عليه بحيلة وضيعة ، كتب رقعة نسب فيها إلى أمين الدولة أموراً تحط من قدره ، وأوعز إلى من ألقاها فى طريق الخليفة ، فلما قرأها الخليفة رأى أن يتحقق من صدق ما تحتويه ، فلما استقصى الأمر وجده اختلاقاً ، وعرف أن كاتبها أبو البركات ، فغضب عليه ووهب دمه وماله وكتبه لأمين الدولة ، ولكن شرف النفس منعه أن يتعرض لخصمه بسوء ، فسقط أبو البركات وانحطت منزلته .

وقال أحد الشعراء فى الطبيبين ، وكانت كنية أمين الدولة أبا الحسن .

أبو الحسن الطبيب ومقتفيه أبو البركات فى طرفى نقيض
فهـذا بالتواضع فى الثريا وهذا بالتكبر فى الحضيض

وقد جمع هذا الحكيم المهذب (أمين الدولة) قواعد السلوك النبيل وأسباب الحياة الراقية فى رسالة كتبها إلى ولده رضى الدولة ، والمتأمل فى حياته من خلال ما يروى عنه يراها تطبيقات على ما ضمنه رسالته ، قال فيها :

« وفز بحظ نفيس من العلم تثق من نفسك بأن عقلته وملكته لا قرأته ورويته ، فإن بقية الحظوظ تتبع هذا الحظ المذكور وتلازم صاحبه ، ومن طلبها من دونه فإما أن لا يجدها وإما أن لا يعتمد عليها إذا وجدها . ولا تثق بدوامها ، وأعوذ بالله أن ترضى لنفسك إلا بما يليق بمثلك أن يتسامى إليه بعلو همته وشدة أنفته وغيرته على نفسه ، ومما قد كررت عليك الوصاة به ألا تحرص على أن تقول شيئاً لا يكون مهذباً فى معناه ولفظه ،

ويتعين عليك إيراده ، فأما معظم حرصك فتصرفه إلى أن تسمع ما تستفيده لا ما يلهيك ويلذ الأغمار وأهل الجهالة ، نزهك الله عن طبقتهم . فإن الأمر كما قال أفلاطون الفضائل مرة الورد حلوة الصدر ، والرذائل حلوة الورد مرة الصدر . وقد زاد أرسطوطاليس في هذا المعنى فقال : إن الرذائل لا تكون حلوة الورد عند ذي فطرة فائقة ، بل يؤذيه تصور قبحها إذ يفسد عليه ما يستلذه غيره منها ، وكذلك يكون صاحب الطبع الفائق قادراً بنفسه على معرفة ما يتوخى وما يجتنب كالتام الصحة يكفي حسه في تعريفه النافع والضار . فلا ترض لنفسك حفظك الله إلا بما تعلم أنه يناسب طبقة أمثالك ، واغلب خطرات الهوى بعزمات الرجال الراشدين »

وهذا الأسلوب غريب في عصره الذي بدأ بوضع مثله الصبي ابن العميد الذي لم تختم به الكتابة كما قيل ، بل ختمت عن قبله ثم بعثت بابن خلدون .

ورسالة أمين الدولة المتقدمة أشبه بكتابة الأساتذة الأوائل كابن المقفع والجاحظ ، فأنت تراه يركب التعبير مطهماً فارهاً إلى حيث يقصد . وبعض الكتاب يركبه التعبير فيتسكع به ، وآخرون يركبون التعبير الهزيل فلا يصل بهم إلا مبهور الأنفاس

ولأمين الدولة شعر جيد ، قال في ولد له غير نجيب :

أشكو إلى الله صاحباً شكسا ... تسعفه النفس وهو يسعفها
فنحن كالشمس والهلال معا ... تكسبه النور وهو يكسفها

وتطل الفلسفة من خلال شعره إذ يقول :

لولا حجاب أمام النفس يمنعها ... عن الحقيقة فيما كان في الأزل
لأدركت كل شيء عز مطلبه ... حتى الحقيقة في المعلول والعلل

كما تبدو الحكمة في قوله :

لا تحقرن عدواً لان جانبه ... ولو يكون قليل البطش والجلد
فللذبابة في الجرح المدِّ يدٌ ... تنال ما قصرت عنه يد الأسد

وله شعر في الألغاز ، على طريقة عصره ، وقد أحسن التعبير عن الميزان إذ قال لغزاً فيه :

ما واحد مختلف الأهواء ... يعدل في الأرض وفي السماء
يحكم بالقسط بلا رياء ... أعمى يرى الرشاد كل رائي
أخرس لا من علة وداء ... يغني عن التصريح بالإيماء
يجيب إذ ناداه ذو امتراء ... بالرفع والخفض عن النداء

ومن بديع مدحه قوله :

لا يسترح إلى الملات معتذراً ... إذا الضنين رأى للبخل تأويلا
يبادر الجود سبقاً للسؤال يرى ... تعجيله عند بذل الوجه تأجيلا

وله مؤلفات كثيرة في الطب ، وقد روى بعض المؤرخين نوادر تدل على حذقه في العلاج وصواب حدسه في معرفة الداء ، منها أنه أحضرت إليه امرأة محمولة لا يعرف أهلها في الحياة هي أم في الممات ، وكان الزمان شتاء ، فأمر بتجريدها وصب الماء المبرد عليها صباً متتابعاً كثيراً (كالدش) ثم أمر بنقلها إلى مجلس دفيء قد بخر بالعود والند ، ودثرت بأصناف الفراء ساعة ، فعطست وتحركت وقعدت ، وخرجت ماشية مع أهلها إلى منزلها

ومن ذلك أن دخل عليه رجل منزوف يرعف دماً في زمن الصيف ، فأمره أن يأكل خبز شعير مع باذنجان مشوي ، ففعل ذلك ثلاثة أيام ، فبرئ . وقال في تعليل ذلك : إن دم المريض قد رق ومسامه قد تفتحت ، وهذا الغذاء من شأنه تغليظ الدم وتكثيف المسام .

وقد عمر أمين الدولة ، إذ بلغ أربعاً وتسعين سنة . ومن تجمله في كبره أن كان عند المستضيء بأمر الله ، فلما أراد القيام توكأ على ركبتيه ، فقال له الخليفة : كبرت يا أمين الدولة ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، وتكسرت قواريري . ففكر الخليفة في قوله هذا ، وأنه لا بد يقصد شيئاً بتكسر القوارير . ثم علم أن الخليفة السابق كان قد وهبه ضيعة تسمى قوارير ، وظلت في يده ، ثم وضع الوزير يده عليها منذ ثلاث سنين . فتعجب الخليفة من حسن أدب أمين الدولة وأنه لم ينه أمرها إليه ، وأمر بإعادة الضيعة إلى صاحبها وألا يعارض في شيء من ملكه .

وبعد فهذا واحد من سلف بنوا صرح الحضارة في العصور الإسلامية ، وعنهم أخذ الغربيون إبان نهضتهم العلمية في أعقاب القرون الوسطى . فإن كنا الآن نأخذ من الغرب فإنا نقتضيه ديناً عليه لأمثال أمين الدولة بن التلميذ .

عباس خضر

من أمجاد الإسلام

أسطول معاوية

للأستاذ محمود غنيم

بلغ أسطول معاوية زهاء ١٧٠٠ سفينة كاملة العدد والعدة ، وقد أخضع البحر الأبيض ووصل إلى أسوار القسطنطينية لحاصرها حيناً من الزمان .



لمن السفينُ يَلُحْنَ كالأعلامِ   فوقَ العُبابِ نواشرَ الأعلامِ (١)
يمخُرْنَ باسم الله موجَ خُضارةٍ   واسم الهدى ومبادىء الإسلام
يهتِفْن بالتكبير لحناً شاجياً   فتُجيبُ أمواجُ الخضَمِّ الطامى
وَيثِبْنَ آونةً أسودَ عرينةٍ   ويطرن آونةً حمامَ سلام
يُمطرن بالجزر الدماء . وربما   كان الدمُ المَوّارُ صوبَ غمام
بمضُ الدَّمِ الموارِ ليس بمأثمٍ   لكنه طُهرٌ من الآثام

هذى سفينُ الله سارت عَيْلماً   مترامياً فى عيلمٍ مُترَام

(١) الأعلام الأولى : الجبال . والثانية : الرايات .

لم تدفع الريحُ الهُبوبُ قلاعها   بل أقلعت بالوحى والإلهام
وحرارةِ الإيمان وهي حرارةٌ   ما زادها الآذىُّ غيرَ ضِرام
إن تَسْرِ فالجُزُرُ الحرامُ مباحةٌ   أو تُرسِ فالشطآنُ فى استسلام

أزجى معاويةُ السفينَ تسيرُ أو   ترسو بكل غَضَنْفرٍ ضِرغام
فكأن بحرَ الروم أصبح مُنبِتاً   بعد الفلا للغاب والآجام
بدم الشهادةِ خضبوه فضاعَ من   أرجانه أرَجُ العباب الدامى
جمح العُبابُ فأسلسوه كأنما   قبضتْ عليه أكفُّهم بزمام
جالت سنابكُ خيلهم فى لُجِّهِ   جولانَها فى مَهْمَهٍ وَرِجام
ولهم نفوسٌ صافياتٌ صفوَ ما   بقراره من لؤلؤٍ وتُؤَام
لله بحرُ الروم وهْو بُحَيْرَةٌ   عربيةُ اللَّهوات والأرحام
ومعاقل اليونان وهْى محاربٌ   مكتظةٌ بالصُّوَّم القُوَّام
لله « رودِس » إذ تُصيخُ « وقبرصُ »   لِصَدَى الأذانِ مرتَّلَ الأنغام
خاض المياهَ كأنما هو حُوتُها   مَن كان يطوى البِيد بالأقدام
ورعى البحارَ ومنْ يقِمْ بهن من   أمَمٍ رعاةُ النوق والأغنام
حكم البحارَ فما طغى طُغيانَها   نفرٌ يُجيدُ العدلَ فى الأحكام
حسروا ظِلالَ الروم عن أمواجِها   فتحررَت من رِبقـــــة الأعجام
نفذُوا إلى أسوار « قُسطنطينَ » فى   عزم كحدِّ السيف غيرِ كهام
ورمَوا معاقلَه وإن لم تستجب   لسهامهم . سَلِمت يمينُ الرامى
أُطمٌ عززْنَ على الحنيفة حقبةً   ثم استجبن على مدى الأيام (١)

محمود غنيم

(١) لم يتمكن أسطول معاوية من فتح القسطنطينية . وإنما تم ذلك فى عهد محمد الفاتح .

الدعوة فى الإسلام

تبليغ لا إلـزام

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى



لا أريد فى هذا المقال أن أرد على من يزعم أن استعمال السيف فى الإسلام كان للدعوة إليه ، فهذا أمر قد كتب الباحثون فيه قبلى ، والكلام فيه يكون معاداً لا فائدة فيـه ، وليس شئ أثقل على نفسى من الكلام المعاد ، لأنه يضيع زمن الكاتب والقارىء ، والزمن أغن من أن يضيع فى الكلام المعاد ، والحديث المكرر .

وإنما أريد فى هذا المقال أن أنبه إلى أن الدعوة إلى الإسلام لا تكون أيضاً بما دون استعمال السيف مما فيه شائبة إلزام ، ولو كان مثل هذا الإلحاح الثقيل الذى استعمله بعض المتنطعين فى الدين مع الأستاذ نقولا الحداد ، وشكي منه المرة بعد المرة فى مجلة الرسالة الغراء .

فالدعوة فى الإسلام قد حددت بأنها تبليغ عن الله لا غير ، وهـذا التحديد قد ورد فى الآية — ٦٧ — من سورة المائدة (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين) فلم يؤمر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية إلا بتبليغ دعوة ربه ، والله تعالى هو الذى يهدى إليها بعد تبليغه من يريد هدايته ، ويضل عنها من يريد إضلاله ، فإذا بلغ فقد أدى رسالة الله تعالى ، وليس عليه بعد هذا أن يلح أو يستجدى فى الدعوة إلى الإسلام ، لأن دعوته أكرم من أن يستعان فيها بالإلحاح أو الاستجداء ، لأنهما يعرضان الكريم إلى المهانة والاستثقال ، ويؤديان إلى عكس المقصود منهما وهو الاستجابة للدعوة .

وهذا إلى أننا قد أمرنا أن ندعو إلى الإسلام بالحكمة ، كما قال تعالى فى الآية — ١٢٥ — من سورة النحل (أدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة وجادلهم بالتى هى أحسنُ إنّ ربّك هو أعلمُ بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين) فإذا بلغ شخص الدعوة أو كان قد عرفها بنفسه كان الإلحاح فى تبليغها إليه من باب تحصيل الحاصل ، وهو عبث تأباه الحكمة التى أمرنا أن ندعو بها إلى الإسلام ، وإنما تقضى الحكمة أن نترك من بلغناه لنشتغل بتبليغ من لم نبلغه ، فقد يكون أقرب منه إلى إجابة الدعوة .

وإذا رجعنا فى هذا إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وجدناه يكتفى بتبليغ الدعوة لمن لم تبلغه ، ويترفع فى التبليغ عن كل ما يقف بالدعوة موقف المهانة ، فلا يلح فيها على من يجد منه نفوراً عنها ، ولا يستجدى فيها من يجد منه استثقالا لها ، ولا يضطغن عداوة على من بلغه فلم يستجب له ، بل يبقى ما بينهما كما كان قبل أن يبلغه دعوته .

فها هو ذا يبدأ دعوته فلا يبدؤها بالإلحاح على قومه ، ولا يعرضها على كل شخص منهم ولو لم يأنس منه الإجابة إلى الإسلام ، بل لا يدعو إلا من يأنس منه الإجابة إلى دعوته من أهله وأصحابه ، فكان أول من آمن به زوجه خديجة بنت خُويلد ، وقد دخل عليه ابن عمه على بن أبى طالب بعد إسلام خديجة بيوم فوجدهما يصليان ، فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، ما هذا ؟ فقال له : هذا دين الله الذى بعث به رسله ، فأدعوك إلى الله ، وأن تكفر باللاّت والعُزّى . فقال له على وكان غلاماً صغيراً : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم . فلست بقاض أمراً حتى أحدث أبا طالب — يعنى أباه — فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم تردده لم يلح عليه ، ولم يقف منه موقف الملحّ المستجدى ، بل قال له : إن لم تسلم فاكتم . وكان لهذا الموقف الكريم أثره فى نفس على ، فلم يلبث أن أسلم ، ثم أسلم زيد بن حارثة ، وكان النبى صلى الله

عليه وسلم بدينه ، ثم أسلمت أم أيمن ، وكانت حاضنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأربعة كانوا من أهله ، وكانوا أقرب الناس إليه ، وقد دعا معهم أبابكر بن أبى قحافة من بنى تيم ، وهم بطن من قريش ، وكان أقرب أصدقائه إليه ، ولهذا بدأ بدعوته دون غيره من أصحابه ، فأسرع إلى التصديق به ، وقال له : بأبى أنت وأمى ، أهل الصدق أنت ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . وهكذا بدأت الدعوة عرضاً كريماً لا إلحاح فيه ولا استجداء ، فكان إسلام من أسلم فى ذلك الوقت إسلاماً كريماً قوياً ، لأنه كان استجابة خالصة للدعوة ، ولم يكن فيه أثر يشينه لإلحاح أو استجداء أو نحوها .

وهذا عمه أبو طالب قام بكفالته وهو صغير ، فلما بعث فى سن الأربعين قام بحمايته من قومه وهو على دينه ، فقبل النبى صلى الله عليه وسلم منه هذه الحماية ، واكتفى بأن بلغه دعوة الإسلام ، ولم يغير ما بينهما عدم استجابته له ، بل كان ينزله من نفسه منزلة العم الذى قام بكفالته وهو صغير ، ولا يثقل عليه من جهة ما يدعو إليه وهو كبير ، ولا يوقعه فى حرج ينفره منه أو يبغضه فيه ، حتى توفى أبو طالب فى السنة العاشرة من البعثة ، والنبى صلى الله عليه وسلم يكتفى منه بحمايته له ، ولا يغيره عليه بقاؤه على شركه ، بل كان يحبه حب ابن الأخ لعمه ، ويتمنى لو يسلم من شدة حبه له ، حتى نزل فى هذا قوله تعالى فى الآية — ٥٦ — من سورة القصص (إنَّك لا تَهدى مَنْ أحببتَ ولكنَّ اللهَ يهدى من يشاءُ وهو أعلمُ بالمهتدينَ) .

وهذا صفوان بن أمية بن خلف كان من أشد قريش عداوة للنبى صلى الله عليه وسلم ، حتى بلغ من أمره أن أرسل عمير بن وهب إلى المدينة ليغتال النبى صلى الله عليه وسلم ، ولهذا أهدر دمه فى فتح مكة ، لأنه عد فيها من مجرى الحرب ، كالذين يعدون مجرى حرب فى عصرنا الحديث ، فلما فتحت مكة هرب منها إلى جدة ليركب البحر منها إلى اليمن ، فأتى ابن عم له إلى النبى صلى الله عليه وسلم فطلب منه أن يؤمنه ، فقال له : هو آمن . وأعطاه عمامته التى دخل فيها مكة علامة يعرف بها أمانه ، فذهب إليه فأدركه قبل أن يركب البحر ، وأتى به النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما علم منه أنه قد أمنه طلب منه أن يمهله بالخيار شهرين ، فقال له : أنت بالخيار أربعة أشهر .

فأسرع النبى صلى الله عليه وسلم إلى إجابته إلى ما طلب من الإمهال على الشرك ، بل كان طلبه أن يمهله شهرين فأمهله أكثر مما طلب ، وأعطاه مهلة أربعة أشهر ! ولم يستعمل معه إلزاماً أو إلحاحاً أو استجداء ؟ تكريماً لدعوته أن تمتهن إذا ألح عليه أو استجداه ، وهى أكرم من أن تعرض للامتهان والاستثقال ، وإنما شأنها أن تكون هى المطلوبة بعد التبليغ لمن يدرك فضلها ، ويعرف شرف ما تدعو إليه ؛ ويعلم نبل ما تأمر به .

وهكذا صين الإسلام فى عهده فى الأول عن العرض المهين ، وحفظ الداعون إليه كرامته ، وضنوا به عمن لا يعرف له قدراً ، ولا يدرك له فضلاً ، فعزَّ وكرم على الناس ، كما يعز ويكرم كل معزَّز مكرم ، وأقبلوا عليه راغبين من أنفسهم ، كما يقبلون على كل عزيز عند أهله ، بعيد عن كل ما يدعو إلى امتهانه أو استثقاله .

وقد بلغ من أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى التلطف فى الدعوة أن يقول لمخالفيه فيما أمره الله به فى الآية — ٢٤ — من سورة سبأ (قُلْ من يرزقكم من السماواتِ والأرضِ قُلِ اللهُ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) فيلقى إليهم دعوته فى هذه الصورة من الشك ، ليتأملوا فيها وهم فى تؤدة ورفق ، فإن آمنوا بها آمنوا بعد إدراكهم لصحتها ، ورغبتهم فى الإيمان بها ، فلا قسر ولا إلجاء ، ولا إلحاح ولا استجداء ، فمن آمن فلنفسه لا لغيره ، ومن ضل فعليها لا على غيرها ، ولا تزرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى .

عبد المتعال الصعيدى

استغاثات ...

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

الله ... والشرق



ربَّاه ضاع السرُّ من يديَّا وأطبقَ الليلُ على عينيَّا
ولم أجد فوق الحياة شيئاً يُطفى العذابَ المادرَ الخفيَّا
إلاَّ نِدائى فى الدُّجى .. يا ربّ !

طرقتُ بالأنغام كلَّ بابِ وطُفتُ بالرَّحيقِ والأكوابِ
ولم أدع أفقاً بلا شرابِ وعُدتُ لا أحمل فى عِيابى
غيرَ الأسى يَشقى الأسى فى قلبى !

عبرتُ بالسهولِ والأجبالِ وبالضحي المُحيِّر الخيالِ
وبالغروب الساخرِ الزَّوالِ وبالدُّجى المُغمغِم السَّآلِ
وبالليالى سِرتُ كلَّ دربِ

وغُصتُ فى الصُّدورِ للأعماقِ وطِرتُ حتَّى أعولَتْ آفاقى
وَضجَّ نَحتى واشتكى بُراقى واندهشَ الطيرُ لما ألاقى
مِنْ عَوْدَتى الكُبرى بغيرِ حَبٍّ !

حفَنتُ من جَنبىَّ هذا الشَّجنَا وصاحباً فى الشَّجوِ يُدعى أرْغُنَا
ولم نزَل نَشدُو ونَسقِى الزَّمنَا فهل رأينا لِلأغانى أذُنَا
تُصغِى لهذا الوَهَجِ المُنْصَبّ !

خمَت بنا القُيودُ والسلاسِلُ وهاجتِ الأوكارُ والبَلابلُ
وراغ فينا الغاصبُ المخاتِلُ واختلطتْ فى ليلنا النوازِلُ
يا ربُّ فجراً عاجلاً للكَرْبِ !

نحن بنو الشَّرقِ الأُباةُ الصِّيدُ نحيا به كأنَّنا عَبيدُ
يا طَيرُ هذا خُلدُكَ الرَّغيدُ فكيفَ أنت الحائر الشريدُ
ووارِدُ النَّبعِ طريدُ الغَرْبِ !

لا هُمَّ صُبَّ النارَ فى السَّواعِدِ واضرِبْ بها فى هذِهِ الشدائِدِ
أغلالُنا شابت، وكم مِنْ حاصِدِ ومنجلٍ يَفرى المنايا هامِدِ
يا نارُ فينا إن صَبَرْنا شُبِّى ..

ملَّ ثَرانا صدأُ القُيودِ وفِريَةَ الميثاقِ والوُعودِ
وباطِلاً زَيَّنَ لِلمُهودِ شريعةَ اللاهينَ بالوُجودِ
لهوَ المراعى بِعُواءِ الذِّئبِ ..

وَيلاهُ منهُمْ فى زمانِ النِّيلِ سبعون عاماً خيَّموا فى الغِيلِ
عاثوا وخانوا حُرْمةَ النَّزيلِ حتى دهتْهُمْ صيحةٌ للجيلِ
فجرجَروا أعلامَهمْ فى التُّربِ !

ولم تزل منهُمْ لدىُ القَنالِ ... حُثالةٌ حطَّت عَلَى الرِّمالِ
من بَدر فليرحم جوى سُؤَالى.. ... إنى بهم من أتعَسِ الجُهَّال !
علاَمَ لم تلحقْ بباقى الرَّكْبِ ؟!

ماذا دهاهم فى جَنوب الوادى ! ... جثُوا فشبُّوا الخُلفَ فى البلادِ
وأضرَموها فتنةً تُنادى ... بالظُّلم والتعذيب والفساد
وما لهَا إلا الصدى مُلَبِّ

وصفَّدُوا فى غابه الأحرارَا ... فمـلأوا قلوبهم أوَارَا
مِنْ أين جاءوا شُرَّداً حَيارَى؟ ... وكيفَ جاسُوا هذه الديارا ؟
يا لعنةَ اللهِ عليهم هُبِّى !!

من أين يا «هاو» أَلِفتَ الموكِبا ... فرُحْتَ فى الخرطوم تمشى عجباً!
وحولكَ الأفواهُ تحدو القِرَبا ... والرايةُ الخضراء تنزُو غضباً..
لقصةٍ زيَّفتها للشعبِ

نسيتَ عهدَ الثلجِ والقواقِع ... وسيرةَ القُرْصانِ والزوابع
وأُمَّةً قامت عَلَى المناقِع ... تريدُ شركَ الشمسِ بالمطامع
ولو تُعايقُ لا دَّعت في الغيبِ !

فى المسجد الأقصى تراءت ثعلباً ... تخفى وتُعطي لليهود الحطبا
ذاتَ لهم لما أروْها الذهبا ... وحــذَّروا أيامَها المُنقلبا
فانقلبت تسعى لهم فى الدَّرْب .

رباهُ ما في الشرقِ جُرحٌ لا يَئِنّ
ولا عَلَى آلامِـــــهِ قرٌّ وطنْ
في كل وادٍ منهُ من بَغى الزَّمنْ
نارٌ وَأحرارٌ وبلوى وفِتَنْ
رباهُ زلزِل قيدهُ يا ربُّ !!

محمود حسن اسماعيل

تاريخ العمارة والفنون الإسلامية

بيت الرسول ومسجده بيثرب

للأستاذ مصطفى كامل ابراهيم

«إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر»
قرآن كريم



خرج النبي صلى الله عليه وسلم، مهاجراً فى سبيل الله إلى يثرب، وفى رحلته هذه العاجلة المضطربة لم يحمل معه من ماله إلا ما خف وأفاد فى مهجره.

ووصلت العير إلى قباء قرب يثرب ومكث بها بضع عشرة ليلة أقيمت فيها الصلوات فى مواعيدها وفى قباء أقيم أول مسجد فى الاسلام، وذلك الذى نزلت فيه الآية الكريمة: (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين). فلم تكن مكة إذن بالمكان الذى يستطيع النبي أن يقيم به مسجداً، ولا أن يذهب بصحبه إلى الكعبة للصلاة بها.

وفى اليوم الخامس على رواية، والعاشر على رواية أخرى، قام موكب الرسول الكريم فى رعاية ربه، يحف به المهاجرون والأنصار متجهاً إلى يثرب، وأهل يثرب تشرئب أعناقهم ليروا القادم الكريم. فرأوا رجلا يملأ العيون والقلوب والأسماع ... رأوا المثل الكامل للكمال والجلال جميعا.

وحملته راحلته حتى أناخت حيث أمرها الله أن تنيخ؛

فكان مربدا[1] لغلامين يتيمين في المدينة من بني النجار، وسأل الرسول: لمن المربد؟ فأجاب معاذ بن عفراء: إنه لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان له وسيرضيهما، ورجا محمداً أن يتخذه مسجداً. فأرسل محمد إلى ملأ من بني النجار وقال لهم: ثامنوني بحائطكم هذا، فقالوا لا والله، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله. فلم يرض إلا أن ابتاعه بعشرة دنانير، وأمر أن تبنى داره في هـذا المكان. وأقام فترة بنائه في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري ودأب المسلمون من المهاجرين والأنصار على مشاركته في بنائه حتى أتموه وما كان بناء الدار رهين أحدا، فقد كانت من البساطة بما يتفق وتعاليم محمد.

— ١ —

وصف الدار :

ودار الرسول كدور العرب الرقيق الحال، التي كانت ولا زالت تبنى في الأنحاء المتواضعة من شبه جزيرة العرب، وقرى الشام، والعراق. فالدار عبارة عن حجرات ضيقة متراصة جنبا إلى جنب، وأمامها فناء مكشوف.

وقد بني أولا الحجرتان المتجاورتان في الركن الجنوبي الشرقي من الفناء لعائشة وسودة، لتكونا بمنأى عن مجلس الرسول وأصحابه في الناحية الشمالية من الفناء. ومساحة كل حجرة (٧ × ٧) أذرع بنيت باللبن يكاد سقفها الجريد تمسه اليد. ثم أضيفت الحجرات إليهما من الناحية الشمالية كلما زاد عدد أفراد الأسرة حتى بلغت ٩ حجرات. والحجرات جميعا تكاد تتفق في السذاجة، وخلوها من مظاهر الترف — اللهم إلا بيت عائشة كما سنبين بعد — فأثاثها حصير يستعمل للنوم، وقرب بها ماء أوعسل أولبن معلقة على الجدران؛ ويحجب الحجرات عن الأنظار سجف من وبر أسود معلقة على أبوابها التي تفتح على الفناء.

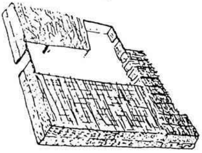
والفناء مربع الشكل طول أحد أضلاعه ١٠٠ ذراعا (٥١ متراً)، بني جدرانه — بالحجارة لارتفاع ٣ أذرع، ثم أكمل الجدار إلى سبعة باللبن (بالطوب الني) وفتح فيه أربعة أبواب، باب الرسول في الشمال، وباب المؤمنين في الجنوب، وباب جبريل (باب عثمان) في الشرق، ثم باب عائشة (باب الرحمة) في الغرب، وقد تم البناء عام ٢ هـ.

وكان يستعمل الفناء لأغراض الأسرة كالطبخ والغسل وتربية الماشية وما إليه. وليس في حكم المنطق ما يمنع من أن يستخدم الرسول وزوجاته والمؤمنين الجزء الشمالي من الفناء الواجه لبيت القدس لأغراض دينية: كاقامة الصلاة في مواعيدها، وأن يجلس الرسول إلى الناس يحدثهم في الدين ويناقشهم ويفصل في قضاياهم. ثم أن هذا الفناء أدى غرضا إنسانيا آخر: فآوى الفقراء من المسلمين تحت صفة (سقف) أقيمت لهم في الركن الجنوبي الغربي من الفناء، فسموا لذلك بأهل الصفة، وأجريت عليهم الأرزاق إلى أن بنى لهم دورا.

ولقد شكى المسلمون إلى النبي حرارة الشمس ساعة الصلاة فأقام لهم في الجهة الشمالية من الفناء سقفا من سعف النخل والخصف والأذخر، وغطى بطبقة من الطين يعتمد على قوائم وعوارض من جذوع النخل، ودام هكذا ١٦ شهراً.

ولما مكر اليهود بالنبي، ونزلت الآية الكريمة على رسول الله وهو قائم يصلي بالناس (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) قرأها وتوجه إلى ناحية الجنوب وتبعه المسلمون.

ونقل السقف إلى الناحية الجنوبية المواجهة للكعبة، ونقلت الصفة إلى الركن الشمالي الغربي وسد باب المؤمنين في الجنوب



(شكل ١) رسم يبين دار الرسول ومسجده عام ١١ هـ

ولم يكن الفناء يضاء ليلا إلا ساعة الصلاة، وذلك بأن يوقد في وسط الفناء شعلة من قش، حتى شدت المصابيح بعد ٩ سنوات إلى جذوع النخل التي اعتمد عليها سقف رواق القبلة.

(١) المربد: مكان تجفيف التمر.

ولما التحق الرسول بالرفيق الأعلى فى ١٣ من شهر ربيع الأول عام ١١ هـ دفن فى حجرة عائشة ، وهى الحجرة التى قضى فيها أخريات أيامه .

ولما تولى أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — ترك الدار كما هى ، واتخذ كرسى الخلافة بها على نحو ما كان يفعل الرسول ، ولما توفاه الله رقد بجوار الجسد الطاهر فى حجرة عائشة ابنته وهى الأولى من ناحية الجنوب .

الزيادة فى أيام عمر :

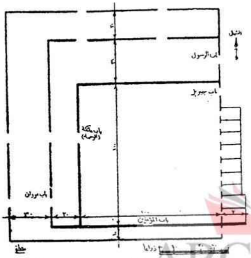
كان لزاماً على عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أن يزيد فى مساحة المسجد ليواجه الزيادة المطردة فى عدد المسلمين والذين يفدون على مقر الخلافة من الأمصار . فأمر عام ٧ : هـ بهدم حائط الفناء — ولم تمس دور الأرامل — وزاد فى إبعاده من الشمال بقدر ٣٠ ذراعا ، ومن الجنوب بقدر ١٠ أذرع ومن الغرب بقدر ٢٠ ذراعا وهكذا أخذ الفناء شكلا مستطيلا طوله ١٤٠ ذراعا وعرضه ١٢٠ ذراعا وكان ارتفاع الحائط حول الفناء يبلغ قامة الرجل .

وزاد عمر فى عدد أبواب الفناء فأصبحت ستة : باب مروان وباب عاتكة ، وباب الرسول ، وباب الفناء ، وبابان آخران فى الحائط الشمالى . وقد كان المسلمون ينفضون أيديهم من التراب بعد كل ركعة ، فكانت تحدث أصواتاً أثناء قراءة القرآن الكريم ، فأمر عمر بأن تفرش الأرض بالحصى من وادى العقيق .

ولما توفى دفن بجوار سلفيه الكريمين .

الزيادة فى أيام عثمان :

ومما يؤثر عن عثمان — رضى الله عنه — أنه كان لا يتحرج من أن يمتع النفس بشىء من نعمة الله . فأخذ يبتعد عن التقشف الذى أرهق نفسه به عمر ، فهذب من مقام الخلافة بحيث تتناسب وجلالها واتساع رقعة الدولة التى كانت تستظل بها . وخصوصا أن عماله فى الأمصار — والأمويون على وجه الخصوص — كانوا يحيطون أنفسهم بأبهة الملك . فأمر فهدمت جدران الفناء فى سنة ٢٤ هـ ، وزاد فيه من الناحية الشمالية بقدر ٢٠ ذراعا ومن الغرب بقدر ٣٠ ذراعا ، وأصبحت ابعاد البناء ١٦٠ ذراعا × ١٥٠ ذراعا ، ولم تمس دور الأرامل ، ولم يزد شيئا من ناحية القبلة ، وبنيت الحوائط من الحجر المنحوت وغطى بسقف من خشب الساج .



(شكل ٢) رسم تخطيطى لبيت الرسول ومسجده والزيادات التى طرأت عليه حتى عهد عثمان

ولما قتل عام ٣٥ هـ (٦٥٥ م) دفن بالغرفة المجاورة للغرفة التى دفن بها الرسول وصاحباه . وتولى الخلافة على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — ونقل مقر الخلافة إلى الكوفة فى رجب سنة ٣٦ هـ ، وبذا فقدت الدار أهميتها الرسمية ، كما فقدتها المدينة نفسها .

ولقد عز على أهل يثرب أن ينتزع منهم مقر الخلافة ، وهى التى ظلت فيهم طيلة أيام أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وأن تبرحهم العزة والتكريم التى ما برحتهم منذ أن وطئت قدما الرسول الطاهرتان أرضهم ، فتعلقت قلوبهم بمسجد الرسول لأن فيه قبره المشرف وقبر أبو بكر الصديق ، وقبر عمر الفاروق ، وقبر عثمان بن عفان ، ولأن هذا المسجد إنما يحمل ذكريات الرسول ، فجملوه كمبتهم ، وأحاطوه بعنايتهم وتبجيلهم ، وما برحوا يقيمون فيه الصلوات ويجلسون فيه إلى فقائهم ، واتجهت قلوب المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى مقام الرسول يشدون إليه الرحال للزيارة والتبريك عملا بالحديث الشريف :

« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدى هذا » .

فلما كان عام ٥٤ هـ أقيمت ذكرى الهجرة فى الفناء لأول مرة ، وقد كانت حفلات ذكرى الحج تقام فى قباء ومن ذلك التاريخ اصطبغ هذا المسجد بالصبغة الرسمية بدلا من مسجد قباء

إعادة بناء المسجد :

ويذكر ابن سعد أن عبد الله بن يزيد شاهد عام ٩١ من الهجرة دور أرامل الرسول ، وكانت تسعة من منزل عائشة إلى دار أسماء بنت حسن ، وذكر أنه كان حاضراً أمر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة عمر بن عبد العزيز ، القاضى بهدم المنازل وضم أرضها إلى فناء المسجد ، وروى ما شاهده من حزن الناس البالغ وتحيبهم على ضياع آخر أثر من آثار بيت الرسول وتمنوا لو بقى ليرى الخلف تقشف الرسول وقناعته .

وقد أرسل الخليفة إلى المدينة المال اللازم والرخام والفسيفساء والأخشاب وثمانين من العمال الروم والقبط من سوريا ومصر ، فأزالوا البقايا القديمة من حجرات نساء النبى وبعض المنازل المجاورة وأقاموا بأشراف صالح بن كيسان المسجد الجديد من الحجر المنحوت ، وحملوا سقفه على ٦ أعمدة فى الاتجاه الشرق الغربى و ١٤ عموداً فى الجهة الشمالية منها ١٠ أعمدة تشرف على الصحن و ٤ أعمدة فى الرواق وبلغت مساحته ٢٠٠ فى ٢٠٠ ذراعاً .

— ٢ —

الأذان للصلاة :

وكان المؤمنون يجتمعون إلى النبى للصلاة حين مواقيتها بغير دعوة ، حتى إذا اكتمل عقدهم أقيمت الصلاة . على أن اشتغال الناس بأمور عيشهم قد يفوت عليهم وقت الصلاة أو يؤخرهم عن مواعيدها . . وليس أحسن من أن يؤذن فى الناس كلما حلت فيأتون رجالا من كل فج عميق ، ففكر فى البوق الذى يدعو به اليهود لصلاتهم ولكنه كرهه فأمر بناقوس كناقوس النصارى ولكنه بعد مشورة عمر وطائفة من المؤمنين على رواية ، وبأمر الله على لسان الوحى على رواية أخرى ، عدل من الناقوس أيضاً إلى الأذان — وقال لعبد الله بن زيد ، « قم مع بلال فألقها عليه ليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك » فارتقى بلال منزلا عالياً لامرأة من بنى النجار كان بجوار المسجد ، وسار رسل الدعوة مع كل ريح بصوت ندى جميل :

هنـاك أذّن للرحمن فامتلأت أسماع يثرب[1] من قدسية النغم

وهكذا أصبح الأذان صفة لازمة لصلاة الجامعة ، وصار لابد للمؤذن من مكان مرتفع فى عمارة المسجد يدعو منه المصلين فلما اتخذ المسلمون المعبد الوثنى (Temenos) فى دمشق للصلاة كان له أبراج فى أركانه الأربعة فأمر معاوية باتخاذها مآذن وهذه أول المآذن .

محراب القبلة :

لم يكن لمسجد الرسول محراب يبين اتجاه القبلة ، والمحاريب بالمساجد ، إنما ظهرت بعد اتصال المسلمين بالمسيحيين والأخذ بفنونهم . والمحاريب المجوفة معروفة فى كنائس المسيحيين قبل الإسلام ، ولكن المحراب المسطح يغلب عليه الابتكار الإسلامى .

وقد كان المسلمون يتحرجون أن تبدو مساجدهم وعليها مسحة وثنية ، أو يهودية أو مسيحية ، أو أن تبدو مظاهر عبادتهم متفقة ، فى قليل أو كثير ، مع مظاهر عبادات الأديان الأخرى ، فحافظوا على شخصية الإسلام وطابعه المميز سواء فى مخبره أو مظهره . وقد فطن المؤلفون العرب إلى أن المحراب متخذ من حنية الكنيسة فنسبوا إلى الرسول حديثا : « أن ظهور المحاريب التى تجعل المساجد تشبه الكنائس من علامات الساعة » .

وكتب السيوطى رسالة سماها « أعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب[2] » ، ويميل الآثاريون إلى الاعتقاد بأن المحراب الأول فى الإسلام صنعه العمال الروم والقبط الذين أرسلهم عبد الملك بن مروان إلى المدينة لإعادة بناء المسجد النبوى أو ذلك الذى صنعه قرة بن شريك ، عامل الوليد فى مصر عام (٨٩ — ٩٦ هـ) (٧٠٩ — ٧١٥ م) .

منبر النبى :

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إنما يخطب الناس وهو

(١) فى الأصل « مكة » من نهج البردة لشوقى بك .
(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع

قائم مستند إلى أحد جذوع النخل التى تحمل سـقف المسجد ؛ إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلا فصُنع له منبر خشبى من ثلاث درجات ووضع فى صدر حائط القبلة ، وكان النبى وقت الخطابة يجلس على الثالثة العليا ويضع أرجله على الثانية ، وكان أبو بكر يجلس على الثانية ويضع أرجله على الأولى ؛ إشعاراً للناس بهيبة الراحل العظيم ، وإقراراً فى نفوسهم بأنه هو خليفته ومهما بلغ به التعظيم والتـكريم فلن يبلغ مبلغه . ولقد يظهر أن للرجل فـكرة دينية تخفى تحت هذا التصرف ... فقد كانت حركة الردة على أشدها ، ومدعو النبوة فى كل واد يهيمون ، يؤلبون الناس على الإسلام ، تخشى أن يتطاع الناس إليه على أنه صـورة ثانية من الرسول فيطالبونه بما لا يستطيعه من وحى أو حديث ، فيضطرب الأمر وتفشو الفتنة ، أو لعل له هدفاً سياسياً فالقوم يعلمون أن الرسول لا ينطق عن الهوى ، وأنه على خلق عظيم ، فأراد الصديق أن يقر فى نفوسهم بأنه لا يتلقى وحياً ، وأن الخطأ جائز عليه فلا يمكن أن يقاس برسول الله على كل حال .

هذا التواضع وهذه السياسة قد ورثها عمر بن الخطاب فخطب الناس وهو جالس على العتبة الأولى للمنبر وجعل رجليه على الأرض إلا أن عثمان بن عفان لم يجد ما يدعوه إلى الجلوس مكان عمر ، ولا مكان أبو بكر ، وليس لديه ما يمنع من جلوسه مكان النبى نفسه . ولا شك بأن إغفال سنة سلفية وصعوده الدرجات إلى مكان النبى أمام الناس قد هزت الناس هزات نفسية عنيفة ، لها مغزاها فى سير الحوادث أيام عثمان .

ومنبر النبى مكرم بحديثه الشريف « ما بين منبرى وبيتى روضة من رياض الجنة » .

والمنبر إنما هو كرسى مرتفع أُدخل فى المسجد للنبى ليكفيه عناء الوقوف مدة إلقاء الخطبة . وقد كان المنبر معروفاً فى الديار المسيحية ، وكان فى كنائس الروم والقبط يجلس عليه القساوسة لإلقاء الوعظ حتى استغنى عنه بالمذبح . ولقد هذب الإسلام من هيئته على مر العصور وأضفى عليه من روحه بما جعل له مغزى وطابعا إسلامياً مميزاً وعالجه الفننون حتى أخرجوه تحفة لها مقامها الكريم بين منتجات الفن الرفيع .

— ٣ —

لم تـكن يثرب غارقة فى البداوة حتى لا يظهر بها أثر من الفن أو الصنعة فوجود اليهود بها — وهم أهل تجارة وحيلة فى جلب المال — مما يرجح وجود الفنون بها . وقد كان فى حجرة عائشة — رضى الله عنها — بعض التمـاثيل مما يتلهى به فتيات العرب وستور محلاة بالصور يفسره حديث السيدة عائشة قالت :

« قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت سهوة فى بقرام (١) فيه تمـاثيل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلوّن وجهه ، وقال : يا عائشة ! أشـد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله ، قالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين » . وجاء فى ربيـع الأبرار للزمخشرى فى حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

« قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك وفى سهوتى ستر ، فهبت ريح فـكشفت ناحية الستر عن بنات (٢) لى فقال : ما هذا ؟ قلت : بناتى ، ورأى بينهن فرساً له جناحان ، قال : فرس له جناحان ؟ قلت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لهـا أجنحة ؟ فضحك حتى بدت نواجذه » .

وبعد ، فهذا قبس من نور ألقيناه على المرحلة المبـكرة من حياة هذا المقام الـكريم وسنحاول فى مقال تال أن نجلو صفحة أخرى من صفحاته الزاخرة الزاهرة .

القاهرة **مصطفى كامل إبراهيم**

(١) السهوة : الطاق . والقرام الستر .
(٢) البنات : التماثيل الصغار يلعب بها .

مراجع البحث نجملها فى يلى :

القرآن الـكريم وكتب السيرة الشريفة .

Eanlıg NusliM Ārchlleerurc لـكريزل طبقات ابن سعد .

تاريخ الأمم والملوك للطبرى

مسالك الأبصار للعمرى

الفن الإسلامى فى مصر للدكتور زكى محمد حسن

التصوير عند العرب لتيمور باشا والدكتور زكى محمد حسن

خطط المقريزى

حياة محمد للدكتور هيكل باشا

ابن حزم الأندلسي

مجموعة من المواهب والعبقريات

للأستاذ قدري حافظ طوقان



ابن حزم مجموعة من المواهب والعبقريات؛ وزير وابن وزير ، ومن أصحاب الجاه الواسع العريض . هذا في ميدان الحياة العامة . أما في المعارف والعلوم فهو فيلسوف لمع في الدين والشعر والأدب والتاريخ

نشأ في قرطبة في القرن الحادى عشر للميلاد من أسرة قال عنها الفتح بن خاقان : « بنو حزم فتية علم وأدب ، وثنية مجد وحسب » . وهو من بيت عريق بالمجد حافل بالترف والنعيم . لكن ذلك لم يدم ، فقد تنكر له الزمان ، وتعرض للنكبات والمصائب ، وأصابه الاعتقال والتغريب والإغرام الفادح . لحقه الأذى والكيد من كل جانب ، ولم ينعم بالاستقرار والاطمئنان .

انصرف ابن حزم إلى العلم بكل عزائمه ، وأخلص له ولم يخلط به مأرباً آخر . وهذا ما يميزه عن كثير من الذين يعنون بالعلم والأدب ؛ ولم يقف عند هذا الحد ، بل « تفرغ لنشره بين الناس فنفع به خلقاً كثيراً » ؛ ذلك لأنه كان يؤمن بأن للعلم زكاة هي نشره وإذاعته .

نشأ في بداية أمره في جو ساعد على بروز مزاياه النفسية والفكرية ، فظهرت عبقريته متعددة النواحي ، وتعمق في البحث والدرس فكان المرجع لأعيان الفكر في زمانه والأزمان التي تلت ، ومصدراً من المصادر المعتمد عليها التي يستشهد بها رجال الدين والعلماء .

وقد اعترف بفضله وعلمه الأقدمون والمحدثون ، فقال عنه أفاضل القدماء : « ... ابن حزم حامل فنون من حديث وفقه وجدل وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديم من المنطق والفلسفة ... » ؛ وقال الذهبي : « ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة » ؛ وقال صاعد : « برز ابن حزم على فحول العلماء بالأندلس حتى تفرد دونهم بميزات » ؛ وشهد الغزالي بفضله : « وعظم حفظه وسيلان ذهنه » . ولقد درس بعض تآليفه المستشرقون ورجال التاريخ في أوربا وأمريكا ، فأنصفوه بعض الإنصاف واعترفوا بأثره في الفقه والعلوم . قال رينيه باسيه : « ابن حزم عالم عربي أندلسي ، متفنن في علوم جمة ، وهو فقيه مشهور ومؤرخ وشاعر مبرز ، دقيق الملاحظة ، شيق الأسلوب » .

وتناول آراءه جولدزيهر وشريبنر وإسرائيل فردلبندر ونيكل وبتروف ، فشرحوها وعلقوا عليها وأبانوا أثره في الفقه والمنطق والتاريخ . ويعترف سارطون في كتابه مقدمة لتاريخ العلم بفضل ابن حزم وعلمه فيقول : « ابن حزم أعظم عالم في الأندلس ، ومن أكبر المفكرين المبتكرين المسلمين فيها » .

ترك ابن حزم مؤلفات ضخمة تدل على سعة اطلاعه وغزير علمه وعظيم أدبه ؛ وقد « ملأ المغرب بعلمه وكتبه ومذهبه ، وشغل أهله طرفاً صالحاً من حياته أحقاباً طوالا ، حتى لكأنه أمة وحده لا فرد من أمة » ؛ اعتز به الأندلس وباهى بفضله العراق الذي كان يومئذ يعج بحضارة ما رأى التاريخ لها مثيلاً .

ويتجلى من كتبه ورسائله أنه كان يتمتع بفكر ثاقب وبصيرة نافذة وملاحظة دقيقة ؛ فهم الشريعة حق الفهم وأفهمها بإخلاص وصدق للناس . وكان صريحاً ومخلصاً للحق إلى أبعد الحدود ؛ وقد ضاق علماء عصره وحكامه بصراحته وإخلاصه ، فأشهروا عليه الحرب العوان ، فأحرقوا كتبه واضطهدوه شر اضطهاد ، وصبوا عليه النكبات والمتاعب . ويمكن القول إنه « ملأ

الأندلس حركة فكرية عنيفة أثارها سلبية وإيجابية ، وجعل مجالس العلم وأقطاب الفكر معسكرين أنصاراً وخصوماً » .

ولسنا بحاجة إلى القول بأن حيوية ابن حزم لم تنقطع بموته ، بل أودعها كتبه وتآليفه فاستمرت تعمل عملها زمناً طويلاً . وإن المتصفح لأدبه وأسلوبه يجد أن فيهما ثورة على التقليد ، فلم يتقيد بأسلوب من تقدموه ، ولم يلتمس في أدبه طريقهم ، وهو يقول في هذا الشأن : « وما مذهبي أن أنضي مطية سواى ، ولا أتحلى بحلى مستعار» . وهذا (كما يقول الأستاذ سعيد الأفغاني): « السر في تأثير بلاغته وأخذها بمجامع القلوب ، ونفاذها إلى أعماق النفوس » . ولهذا لا عجب إذا امتاز بأسلوب خاص ، وأدب له لونه الخاص ، وقد حلق به عالياً فجعله « أديباً عالياً سبق عصره قروناً عديدة » .

وابن حزم صاحب رأى مستقل يأخذ بالعقل ويخالف بالعقل ، لهذا نراه حارب الخرافات وهاجمها بشدة ، حتى إنه استعمل ألفاظاً نابية لا يليق بمثله أن يأتي بها مما يعطى فكرة عن شدة ألمه من الأخذ بالأوهام والاعتقاد بالخرافات . كان يدعو إلى الأخذ بالعلم الصحيح والاعتماد على العقل ، يتجلى ذلك في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) بشأن النجوم وأثرها في الناس وهل تعقل ؟ قال ابن حزم : « زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع ... وهذه دعوى بلا برهان . وصحة الحكم بأن النجوم لا تعقل أصلاً ، وأن حركتها أبداً على رتبة واحدة لا تتبدل عنها . وهذه صفة الجماد الذي لا اختيار له . وليس للنجوم تأثير في أعمالنا ، ولا لها عقل تدبرنا به إلا إذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعياً كتدبير الغذاء لنا ، وكتدبير الماء والهواء ونحو أثرها في المد والجزر ، وكتأثير الشمس في عكس الحر ، وتصعيد الرطوبات (التبخير) . والنجوم لا تدل على الحوادث المقبلة » .

ومن هذه الآراء يتضح أن ابن حزم لا يأخذ رأياً إلا بعد أن يمحصه ويسلط عليه العقل والبرهان ، فإن أجازه العقل وأمكن البرهنة عليه أخذ به ، وإلا فهو غير مقبول لديه .

وخالف ابن حزم الأقوال التي تشير إلى أن النيل وجيحون ودجلة والفرات تنبع من الجنة ، وتهكم على قائليها . وبعد أن فند هذه الأقوال بين أن لهذه الأنهار منابع معروفة في الأرض على ما هو موضح في كتب الجغرافيا .

ولابن حزم آراء علمية ونظريات فلسفية « هي في الطبقة الأولى من القيمة الذاتية الحقيقية » كما يقول الدكتور عمر فروخ .

ومن هذه النظريات الجديرة بالذكر والاعتبار نظرية المعرفة ، وقد عقد لها فصلا خاصا في كتابه : (الفصل في الملل والأهواء والنحل) . وتتركز الأسئلة في هذه النظرية على ما يلي :

كيف تعرف الأشياء ؟ وما نعرف عنها ؟ وما الدليل على صحة المعرفة ؟ ولقد بحث في هذه النظرية اليونان ، لكن بحثهم لم يكن من العمق والسعة بحيث يجعلها كاملة ، إلى أن جاء الفيلسوف الألماني (كانت Kamt) في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ، فبحثها بحثاً وافياً شاملا جعل مؤرخي الفلسفة الأوروبية يقولون : إن الفضل في إيجاد نظرية المعرفة وفي شرحها ، يعود أولا إلى كانت .

ولكن الدكتور عمر فروخ في كتابه عبقرية العرب درس الآراء التي وردت في كتاب ابن حزم وقارنها بما قاله (كانت) فتبين له أن نظرية المعرفة قد عرضت لابن حزم قبل (كانت) بسبعة قرون ونصف قرن .

يرى ابن حزم أن المعرفة تكون (١) بشهادة الحواس — أي بالاختبار الا تقع عليه الحواس ، (٢) بأول العقل — أي بالضرورة وبالعقل من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس ، (٣) ببرهان راجع من قرب أو من بعد إلى شهادة الحواس وأول العقل .

ويرى ابن حزم أن الغرض من الفلسفة والشريعة يجب أن يكون إصلاح النفس حتى تستعمل(النفس) الفضائل وتكون في دائرة السيرة الحسنة المؤدية إلى السلامة في المعاد وحسن السياسة للمنزل والرعية جاء في كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ما يلي : « الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها ، والغرض المقصود نحوه بتعلمها ، ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها

فى المعاد وحسن سياستها للمنزل والرعية . وهذا نفسه ، لا غيره ، هو الغرض من الشريعة . هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء فى الفلسفة ، ولا بين أحد من العلماء فى الشريعة .. »

وابن حزم من المقدمين فى الظاهرية والمتحمسين لها . ومذهب الظاهرية هو مذهب الجماعة الذين يقبلون ما جاءت به الآيات الكريمة والأخبار الموثوقة من الحديث والسنة ، ولا يتأولون شيئاً على ما لم تجر به سنة العرب فى فهم لغتهم . وقد وضع فى الظاهرية تآليف قيمة تعرض فيها لمسائل فقهية ومشا كل دينية وكان فيها مبتكراً ، إذ طبّق الأصول الظاهرية على العقائد . ومن آرائه التى أودعها كتبه يتبين أنه كان من الذين (انتقضوا على التوسل بالأولياء ومذاهب الصوفية وأصحاب التنجيم) . كان يميل إلى المناظرة والهجوم على خصومه والذين يخالفون فى آرائه ، لكنه كان يتوخى دائماً إنصاف الخصوم ويتجنب التضليل واختلاق التهم .

ولابن حزم رسالة لطيفة قيمة هى رسالة فى المفاضلة بين الصحابة ، شرح فيها مذهبه فى المفاضلة سالكا طريقاً منطقية محكمة . ولقد أحسن الأستاذ سعيد الأفغانى فى نشرها فقدم بذلك خدمة علمية جليلة يشكر عليها أجزل الشكر .

وفى هذه الرسالة النفيسة كان ابن حزم مبتكراً فى الطريقة التى اتبعها فى ترتيب موضوعاتها . وكانت على النمط الآتى : تقرير للأسس ثم بسط الدعوى ، ثم استعراض آراء الخصوم وشبههم وأخيراً دفع للشبه وبرهان للدعوى ؛ وهى كما يقول الأستاذ الأفغانى « طريقة محكمة كاملة » تعلم الحوار المضبوط ، والمناقشة الدقيقة ، والجدل الصحيح القوى ، وفوق ذلك ، فقد دلت هذه الرسالة على « براعة فى تحليل النصوص وجودة الاستنباط ، ودقة الفهم لها ... »

يرى ابن حزم فى هذه الرسالة أن العامل يفضل العامل فى عمله بسبعة أوجه لا ثامن لها وهى : الماهية وهى عين الفعل وذاته والكمية وهى العرض فى العمل والكيف والكم والزمان والمكان والإضافة . ثم يشرح كلاً من هذه الأوجه فى قالب جذاب يستهوى القارئ وبأسلوب سهل فيه ابتكار وفيه إحكام ومنطق .

والآن لا يتسع المجال لشرح آرائه ونظرياته ، ولكن يمكن القول أنه ترك تراثاً ضخماً لم يصل إلينا منه إلا القليل ، وهى تبحث فى الفقه والأدب والأخلاق والفلسفة وأخلاق النفس والأصول ، والامامة والسياسة والمنطق والإيمان والفرق الإسلامية والاجماع والتاريخ . ولعل أشهرها كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، وكتاب طوق الحمامة ، ورسالة المفاضلة وقد مر ذكرها .

وهذه كلها تدل على علم واسع وعقل حصيف وفكر خصيب وأنه كما يقول الأستاذ الأفغانى « أحدّ ذهنية انبثقت عنها الأندلس فى جميع عصورها » وهو يمثل العبقرية الأندلسية أروع تمثيل . وقد سما نبوغه وارتفع درجات جملت المؤرخين والباحثين يعتبرونه من المقدمين فى تاريخ تقدم الفكر والعلم ومن أعلام العلماء الخالدين ...

قدرى حافظ طوقان

الأندلس الثانية

للأستاذ ابراهيم الوائلي



مواكب النصر ودنيا الظفر   كيف تلاشى الأمل المنتظر
أيستنيم الشرق مستخذيا   وفى زواياه يدب الخطر ؟

بالأمس كنا نتحدي الورى   لما زحفنا زحفة واحده
فاصطبغت بالدم تلك الذرى   تشهد أنا أمـــة خالده
واليوم قد عادت بنا القهقرى   سياسة موتورة حاقده

بالأمس كنا ونشيد الكفاح   أغنية نهفو لاسجاعها
قد رتلتها نبرات الســـلاح   فاهتزت الدنيا لإيقاعها
واليوم من قد حصبتها الرياح   عادت إلى تحقيق أطماعها

بالأمس كنا وصهيل الجياد   ترن فى الآفاق أصداؤه
وحلم «صهيون» بأرض المعاد   طارت على الساحل أشلاؤه
واليوم عـدنا وحديث الجهاد   طيف وفى « الرملة » أنباؤه

أبعدأن دوّت على «القوطتين»   أيام غسان تناجى الحرم
وانتفض التأريخ فى الرافدين   يبعث فينا سيرة المتصم
نعود من ذلك (بخفى حنين)   ولعنة التاريخ بين الأمم ؟!

قالوا : أطل السيف من غمده   وعاودت « مكة » قرآنهـا
وانطلق التاريخ من مهده   يكتب للأمة عنوانها
فضاحك النيل ربى «نجده»   وصافحت بغداد عمانها

ثم انثنينا بعد ذاك الظفر   تخدعنا أحبولة الطامعين
وزمرة كنا قصرنا زمر   تعبث فينا حيل الماكرين
فأين يا أمتنا المســـتقر   إن نحن ضيعنا تراث السنين !

ما هكذا تبلغ آمالهـــا   من جانبت خطتها الظافره
فى غد تندب أوصالهـــا   وقد أطّتها اليد الغادره
يا من مشت تحمل أثقالها   ما ذا وراء الخطوة الحائره

إنا لنخشى بعد هذا النضال   فى شرقنا « أندلساً » ثانيه
فى ذرى القدس وخلف الجبال   قد رصدتنا الفئة الباغيه
وفى ربى « نجد » وحول « القنال »
ما كان فى « الشط » و « حبّانيه »(١)

مواكب « اليرموك » عودى فذى
أيامنا تستصرخ (ابن الوليد)
وجددى ذاك النضال الذى   ربع به كل قوى عنيد
فليس غير السيف من منقذ   يا راية الفتح اخفقى من جديد

حرب أردناها لنشر السلام   فى وطن قد مزقته الحروب

---

(١) إشارة إلى (الشعيبة) قاعدة الإنجليز فى البصرة . و (حبانيه) قاعدتهم الأخرى قرب بغداد على الفرات .

بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية

للأستاذ احمد احمد بدوى



لم تكن بلاد الشام يوم هاجمتها جحافل الغرب فى أواخر القرن الخامس بمستطيعة أن تردهذه الجيوش المتدفقة عليها من كل صوب ، فلم تكن وحدة تحت سلطان واحد ، وإنما كان النظام الإقطاعى يمزق شملها ، ويفتت قواها . فسقطت فلسطين وكثير من بلاد الشام فى أيدى الغزاة المتعقبين ، وقاست البلاد المفتوحة من ويلات التدمير والنهب وسفك الدماء ، ما لا يستطيع التاريخ أن ينساه ، وكان نصيب بيت المقدس عندما اجتاحوه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من أكبر الأنصباء ؛ فقد جرت به مذبحة من أبشع المذابح التى عرفها التاريخ . يقول ميشو Michaud المؤرخ الفرنسى فى كتابه تاريخ الحروب الصليبية Histoire des Croisades (ج١ص ٢٣٦) فى حديثه عن بيت المقدس : « سرعان ما صارت المذبحة عامة : ذبح المسلمون فى الطرقات وفى المنازل ، ولم يعد فى بيت المقدس ملجأ للمغلوبين ؛ فبعض الذين فروا من الموت ألقوا بأنفسهم من فوق الأسوار ، والآخرون جروا جماعات يختبئون فى القصور والأبراج ، وبخاصة المساجد ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفرّوا من أن يتبعهم الصليبيون ، أما وقد صار الصليبيون سادة المسجد الأقصى الذى دافع المسلمون عن أنفسهم حيناً فيه ؛ فقد جددوا فيه المناظر المحزنة ، دخله المشاة والفرسان ، واختلطوا بالمهزومين ، وفى وسط أشنع ضوضاء ؛ كنت لا تسمع إلا الأنين وصيحات الموت ، لقد كان المنتصرون يسيرون على أكوام من الجثث ليتبعوا من يحاول الفرار عبثاً . وقال شاهد عيان هو « ريمون داجيل » ارتفعت الدماء إلى ركب الخيل وأعنتها فى المسجد ، وكل الذين أبقى عليهم التعب من الذبح أو أسروا طمعاً

فكان منا أن ملكنا الزمام حين تلاقينا وشب اللهب
فيا ربوعاً دب فيها الحسام تذكرى بالأمس دنيا العرب

تذكرى تاريخ وادى الفرات يوم تحدى صلف « الإنجليز »
فلم تخفه النار والطائرات حين مشى وهو قوى عزيز
ودجلة تهزأ بالماخرات وحلم « مود » ورؤى « همفريز »

واذّكرى ما كان فى (ميسلون) يوم أتت (باريس) فى كبرياء
وخلفها الغرب الأثيم الخئون قد بثت الغدرة اللأبرياء
فانتفضت (جلّق) بعد السكون وسجلت تاريخها بالدماء

و إن نسيت النيل وهو الغضوب فاستعرضى أمواجه الثائره
ترىْ بلاداً ما ثنتها الخطوب عما تريد الأمة الساهره
من الشمال الحر حتى الجنوب لما تزل جبارة قاهره

والمغرب الأقصى وأعلامُه
و (الريف) تحميه الأسود الغضاب
قد روعت (باريس) أيامُه وجللت تاريخها بالضباب
وزلزل الغرب وأصنامه حين تقرتها أكف الشباب

فيا دماء طويت فى الرغام تحية الشعر لزاكى الدم
ويا جراحاً نخرت فى العظام سوف تمرين على بلسم
ويا حياة أُفعمت بالظلام لا بد من فجر فلا تسأمى

(القاهرة) ابراهيم الوائلى

فى أن يفدوا أنفسهم بفدية كبيرة قتلهم الصليبيون ؛ لقد أكرهوا على أن يلقوا أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويكونوا طعاماً للنيران ، وكانوا يخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ويجرونهم فى الميادين العامة ، حيث يذبحونهم فوق أكداس الموتى ، ولم يثنهم دموع النساء ولا صيحات الأطفال . لقد كانت الذبحة هائلة وكانت الجثث مكدسة ، لا فى القصور ، ولا فى المساجد ، ولا فى الشوارع فحسب ، ولكن فى أخفى الأماكن وأبعدها . ولم تنته الذبحة إلا بعد أسبوع . ويتفق المؤرخون الشرقيون والإفرنج على أن عدد القتلى يبلغ سبعين ألفاً ؛ وبعدئذ أمر من بقى من المسلمين الذين لم ينجوا من القتل إلا ليقعوا فى استعباد مخيف ، أن يدفنوا الأجسام المشوهة لأصدقائهم وإخوانهم ، فأخذوا ينقلون — وهم يبكون — هذه الجثث خارج بيت القدس ، وساعدهم فى ذلك بعضُ الصليبيين الذين دخلوا المدينة أخيراً ، فلم يظفروا بكثير من الأسلاب ، وأخذوا يبحثون عن بعض الغنائم بين الموتى » . وقال ابن الأثير فى تاريخه الكامل (ج ١٠ ص ١١٧) وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان ، وجاور بذلك الموضع الشريف ، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنوراً من الفضة وزنه أربعون رطلا بالشامى ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلا ، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء » .

خرج المستنفرون بعد سقوط بيت القدس إلى بغداد ، فحضروا فى الديوان وقطّعوا شعورهم ، واستغاثوا وبكوا ، وقام خطيبهم فى الديوان ، فأورد كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا ، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك المكان المعظم ؛ من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال ، ولكن الخليفة لم يكن فى يده من الأمر شيء بل كان يعتمد على السلاجقة ، فأرسل على عجل ثلاثة رجال من حاشيته إلى السلطان بركياروق وأخيه محمد ، وقد كانا معسكرين يتقاتلان عند حلوان ، وتوسل إليهما أن يتركا ما بينهما من النزاع ، وأن يسيروا إلى العدو المشترك . غير أن هذا النداء لم يجد أذناً مصغية ، فسرعان ما كان الإخوان يقتتلان تاركين الفرنج يؤسسون لهم ملكا ببلاد الإسلام . ولم يصغ أحد إلى تلك الصيحة التى أرسلها الشاعر :

مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراجم
فإيهاً بنى الإسلام إن وراءكم وقائع يلحقن الذرا بالمناسم
أتهويمة فى ظل أمن وغبطة وعيش كنوّار الخميلة ناعم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وتلك حروب من يغبْ عن غمارها ليسلم يقرع بعدها سن نادم

ظل بيت المقدس فى أيدى الصليبيين أكثر من تسعين عاما . وكان من أكبر أمانى نور الدين محمود أن يسترده للمسلمين، ولكنه مات قبل أن يحقق أمله . فلما ملك صلاح البلاد واتحدت مصر والشام تحت سلطانه صمم على أن يستعيد الوطن المغتصب فأرسل إلى جميع أجزاء امبراطوريته يستنفر الناس لقتال الفرنج وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وبلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم بالتجهز له ، فأقبلت الجيوش من كل حدب ، ومضى صلاح الدين على رأس جيشه فالتقى بالفرنج عند حطّين ، ودارت عندها معركة لم يذق الفرنج لها مثلا منذ قدموا من ديارهم ومضوا بين أسير وقتيل . لم ينتظر صلاح الدين حتى يجمع العدو شمله المبدد ، بل مضى يتابع انتصاراته ، وأخذت مدن العدو تسقط فى يده الواحدة إثر الأخرى ، حتى إذا سقطت عسقلان والبلاد المحيطة بالقدس شمر عن ساعد الجد ، وذهب إلى بيت القدس يريد فتحه ، وهنا رأى العدو أنه لاقبل له بالجيش الزاحف فاستكان وطلب الأمان ، وفتحت المدينة أبوابها لاستقبال صلاح الدين يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ، وأباح السلطان لسكانها الروم والفرنج المدنيين أن يعيشوا فى بلاده ، وأن يستمتعوا بحقوقهم المدنية إذا شاءوا ، أما المحاربون فعليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم خلال أربعين يوماً ، على أن يدفع كل رجل عشرة دنانير ، وكل امرأة خمسة وكل طفل ديناراً ،

فإذا لم يستطع واحد أن يدفع فهو أسير؛ غير أن السلطان لم ينفذ ذلك حرفياً، فقد دفع هو نفسه فدية عشرة آلاف، ودفع أخوه الملك العادل فدية سبعة آلاف، بينما مضى عدة آلاف بدون فداء. وقد حمل الناس والكهنة ذخائرهم من غير أن يتعرضوا لأذىً ما؛ بل قدمت الدواب لكثير منهم، ممن لا يجدون ما يركبون.

لقد كانت إنسانية صلاح الدين على النقيض من وحشية اولئك الصليبيين الذين غزوا القدس وفتحوه، ومن قسوة أمرائهم؛ فإن كثيراً منهم مضوا إلى أنطاكية غير أن أميرها بيمند طردهم وأبى أن يقبلهم وأغلق صاحب طرابلس مدينته في وجوههم، فمضوا إلى بلاد الإسلام حيث استقبلوا هناك أحسن استقبال. وقد عدّد ميشو Michaud أنواعاً من قسوة الصليبيين ضد إخوانهم اللاجئين من بيت القدس.

أصلح صلاح الدين ما تخرب من المدينة، ورمّ ما تهدم من المساجد، وحكم المدينة حكماً يسوده العقل والحرية، ثم أمر بإحكام سور بيت القدس، وأنشأ مدرسة ورباطاً وبيمارستاناً ووقف عليها الأوقاف الدارّة.

كان لاستعادة بيت القدس أثر بالغ في نفس المسلمين، يقصر القلم دون وصفه. وقد اجتهد المؤرخون في وصف دخول صلاح الدين بيت القدس، ولا زالت خطبة الجمعة الأولى التي خطب بها محيي الدين محمد بن الزكي أمام صلاح الدين محفوظة بنصها في كتب التاريخ. أما الشعراء فقد فاضت قرائحهم بتمجيد صلاح الدين فأنشدوه أو أرسلوا إليه ما يعبرون به عن مدى الإعجاب والتقدير ومن ذلك ما قاله الشريف النسابة المصري:

أترى مناماً ما بعيني أبصر ... القدس يفتح والفرنجة تكسر
ومليكهم في القيد مصفود ولم ... ير قبل ذلك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي ... وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذي ... هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد ... ماذا يقال له وما ذا يذكر ؟ !
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده ... ولأنت في نصر النبوة حيدر

ملك غدا الإسلام من عجب به ... يختال، والدنيا به تتبختر

ولكن هذا الفتح المظيم على ضخامته لم يله العماد الكاتب عن التفكير فيما بقي بأيدي الصليبيين من بلاد، وأن العبء الملقى على عاتق صلاح الدين هو تطهير البلاد كلها من رجسهم فكتب يقول:

قل للمليك صلاح الدين أكرم من ... يمشي على الأرض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... «صور» فإن فتحت فاقصد «طرابلسا»
أثر على يوم «أنطرسوس» ذا لجب ... وابعث إلى ليل أنطاكية العسسا
واحتل ساحل هذا الشام أجمعه ... من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منهمو نفساً ولا نفساً ... فإنهم يأخذون النفس والنفسا

أراد الصليبيون بعد موت صلاح الدين فجمعوا جموعهم ومضوا إلى الشام يعيثون فيه فساداً، ثم رأوا أن أفضل طريق للتغلب على عدوهم الملك العادل ملك القدس والشام إنما هو ضرب العادل في مكان حيوي منه، وكانت مصر هي المكان الحيوي المختار. فما إن قوى الصليبيون بأسطول وأمداد جديدة حتى وجدوا في أنفسهم الشجاعة للنزول على دمياط في صفر سنة ٦١٥، ولما سقطت المدينة في أيديهم خاف المعظم عيسى أن يسقط بيت القدس في أيديهم فمضى إليه وخرّبه، وخرج معظم من كان بالقدس من الناس، ووقع في البلد ضجة عظيمة، وخرجت النساء والبنات والشيوخ وغيرهم إلى الصخرة والأقصى وقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم ثم خرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأهليهم، وامتلأت بهم الطرقات، ولم يبق في القدس إلا نفر يسير، ونقل المعظم ما كان في القدس من الأسلحة وآلات القتال وقد شق على المسلمين تخريب القدس وأخذ دمياط

عرض الكامل — بعد موت أبيه العادل — أن يرد إليهم مملكة بيت القدس وجميع ما فتحه صلاح الدين على أن يردوا إليه دمياط فحسب، ولكن هذا العرض المغري قوبل بالرفض من جانب الصليبيين وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروه بها.

ويقول لان بول في كتابه: تاريخ مصر في القرون الوسطى

(ص ٢٦٣) : إن أعظم فرصة أتيحت الصليبيين قد أضاعوها ، وإن فيليب أوغسطس عندما سمع نبأ رفضهم قال : إنهم مجانين بلهاء إذ يرفضون مملكة مقابل مدينة ولم يلبث الصليبيون أن انهزموا فى مصر وتركوها ، فلم تقدم حملتهم شيئاً

لم يحاول الصليبيون استرجاع بيت القدس ، ولا يعود ذلك لأسباب حربية فحسب ، ولكن روح الصليبيين قد تغيرت . فصليبيو سوريا يفضلون مدنهم الساحلية الغنية المليئة بتجار الطليان والتى يحفُّ بها الأراضى الخصبة الزراعية على أراض داخلية خربتها حروب الفرنج مع صلاح الدين ، أما الرغبة الملحة فى امتلاك مدينة المسيح فقد أطفأتها شهوة الثروة ، ومع ذلك لم تمت هـذه الروح وظلت حية فى نفوس أساقفة روما الذين دفعوا فردريك الثانى إلى أن يشن حرباً صليبية جديدة فأقلع إلى الشام ونزل بمدنه الساحلية سنة ٦٢٥ ، وكانت هذه الفترة التى نزل فيها فترة نزاع بين الكامل وابن أخيه الملك الناصر ، فرأى الكامل بعد مفاوضات بينه وبين الإمبراطور الصليبى أن تعقد بينهما معاهدة ، نزل بمقتضاها سلطان مصر عن بيت المقدس بشرط أن تبقى على ما هى عليه من الخراب ، ولا يجدد سورها ، وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج وأن الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط ، ويتولاه قوم من المسلمين ، ويقيمون فيه شعائر الإسلام : من الأذان والصلاة . ويقول باركر فى كتابه الحروب الصليبية (ص٧٩) : « إن الإمبراطور ظفر بهذه المعاهدة بحسن استخدامه لقواه السياسية وباستغلال لما رآه من نزاع بين الملك الكامل ومنافسيه فى سوريا »

أغضبت هذه المعاهدة المسلمين واستعظموها ، ووجدوا لها من الوهن والألم ما لا يمكن وصفه ، واشتد تشنيع الملك الناصر داود بدمشق على عمه الملك الكامل ، ونفرت قلوب الرعية وقد رأوا الفرنج يتسلمون بيت المقدس فى أول ربيع الآخر سنة ٦٢٦ وجلس الحافظ سبط بن الجوزى بجامع دمشق ، وذكر فضائل بيت المقدس ، وحزن الناس لاستيلاء الفرنج عليه ، وشنَّع على هذا العمل فاجتمع فى ذلك المجلس ما لا يحصى عدده من الناس وهم فى ثورة عنيفة وأنشد الحافظ قصيدة أبياتها ثلاثمائة بيت منها .

على قبة المعراج والصخرة التى   تفاخر ما فى الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحى مقفر العرصات

واضطر الملك الكامل إلى أن يرسل رسولا إلى البلاد وإلى الخليفة لتسكين الناس وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس ، بل لقد اضطر الملك الكامل نفسه إلى أن يقنع نفسه بأنه لم يأت أمراً إدًّا ، فكان يقول : إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدرة خراب ، والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأموال والضياع . ولكن ذلك لم يقنع أحداً من المسلمين ، ولعله لم يقنع الكامل نفسه .

وقد انتهز الفرنج ما حدث من الخلاف بعد موت الملك الكامل فعمَّروا فى القدس قلعة وجعلوا برج داود أحد أبراجها ، وكان قد ترك لما خرب المعظم أسوار القدس فمضى الناصر داود وقد علم بما أحدثه الفرنج ، وحاصر القدس واستولى عليه عنوة فى جمادى الأولى سنة ٦٣٧ ، وفى ذلك يقول ابن مطروح :

إذا غدا بالكفر مستوطناً   أن يبعث الله له ناصراً
فناصر طهره أولا   وناصر طهره آخرا

يريد بالناصر الأول صلاح الدين ، ومنذ ذلك التاريخ وبيت القدس بيد المسلمين .

أحمد أحمد بدوي

مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

مطبعة الرسالة